٣١

روايات احلام

عروس من ذهب

عروس من ذهب

تلاعبت نسمات الحب بقلب أنونا، فركضت خلف سرابه وسافرت وحدها إلى بلد غريب لتتزوج من اليكسي بيري استاليا...

وتزوجت، لكن بعدما ارتفع البرقع عن وجهها وجدت أنها لم تتزوج اليكسي، الرجل الرقيق الحنون بل ابن عمه المتغطرس.

أنونا في قصر ليس فيه إلا الخداع... الزوج الجديد أكّد لها أنه لا يرغب فيها، لكن أنونا قررت أن لا تثق بأحد، رغم أن مشاعر جديدة أخذت تقتحم أسوار قلبها...

١ ـ عروس المجهول

بدأت قصة أنونا لانكستر مع الحب منذ شهرين.. كانت قد انطلقت من عالم موديل التصوير الفوتوغرافي الرتيب نسبياً والممل، الى عالم أكثر إثارة وتشويقاً، بل أكثر تألقاً، هو عالم الازياء. قدمها صديق صديقتها الى «برومبيرو» المصمم الشاب اللامع الايطالي، الذي غزا اسواق بريطانيا بتصميماته الرائعة. وفي الصباح التالي بالذات اتصل بها برومبيرو مقترحاً عليها أن تعرض له مجموعته الجديدة.

ارتابت أنونا بالامر، فرغم انطلاق برومبيرو في عالم الازياء كالصاروخ، فإن له سمعة لا ثاني لها في عالم كل شيء فيه جائز. وعندما ذكرت لزميلاتها أن لديها موعداً معه تلقت عدة تعليمات خبيثة تشير الى «أريكة الانطلاق» وقالت لها لاورا فروست بمرارة بارزة:

ـ حسناً.. لقد قررت الاستسلام أخيراً عزيزتي توني.

لم يكن هناك مجال لتجاهل نبرة الحسد في صوت الفتاة، أو للتغاضي عن الكآبة الساخطة على ذلك الفم الجميل، كانت أنونا تراقب انفعالات زميلتها عبر المرآة في غرفة الملابس الضيقة التي تتقاسمانها.. لكن، خلال السنتين الماضيتين،

تعلمت أنونا أن الطريقة الوحيدة للتعامل مع مثل هذا النوع من الحديث، هو تجاهل الكلام اللاذع.

- لا!.. إنه موعد عمل صرف لاورا فروست عزيزتي!

استندت الشقراء الطويلة الى الحائط، تراقب أنونا، تتصارع مع بذلة ضيقة مخصصة لسباقات الدراجات النارية التي ظهرت فيها وهي تصوّر دعاية لمصفف شعر، وقالت:

- أراهن على هذا.

ثم وقفت للحظات في ثيابها الداخلية تفتح سحّاب فستان من الموسلين سترتديه في دعاية شراب. واكملت:

- أتعلمين... عليك مراقبة وزنك نوني. لقد اكتسبت بضعة كيلوات، وبحسب ما سمعت.. بروميرو يصر على أن ترتدي تصاميمه ذوات القد الغصني.

- أتظنين هذا لاورا؟

ووضعت يدها على صدرها المتماسك وهي تلتفت يميناً وشمالاً، تدرس انعكاس صورتها بقلق. فبدت عندها لمحة انتصار في بسمة الفتاة الاخرى:

- أجل... تبدين تقريباً... مختلفة... مع ذلك، وبالرغم من أنه يحب عارضاته رقيقات، إلا أنه ليس هناك ما يدل على ما يفضله في أموره الشخصية. على كل، إنه معتاد على النساء الايطاليات.. وهن يملن نحو... تغطية أجسادهن.

لذلك، عندما قدمت أنونا نفسها لمقابلته في شقته. لم تدرِ إذا كان عليها أن تشعر بالرّاحة أو بالضيق لأنها لاحظت أنّ اهتمامه بها كان اهتماماً مهنياً محضاً، ليس فيه أدنى اشارة الى

ما لمحَت إليه زميلاتها «أريكة الانطلاق».

قال لها وهو يمضغ سيكاره بين اسنانه:

- أجل... تعجبني طريقة تحركك... درست الباليه، كما أعتقد.

أخبرته أنونا أنها درست الباليه عدة سنوات فهز رأسه باعجاب:

- عظيم... آن لكن يا فتيات انكلترا أن تعترفن بأن الاناقة الباردة لا تكفي... على كل الاحوال.. تعجبينني... حضري مواعيدك عبر وكيلك، وتعالي في الاسبوع القادم.. لدينا عمل كثير، ولست مستعداً لخمول في العمل أو لمواعيد سيئة.

لم تجد أنونا نفسها إلا عند عتبة الباب، تبتسم لأنها عندما دخلت كانت قد هيأت نفسها للقتال من أجل شرفها. لكنها فيما بعد، وذلك حين عملت مع بروميرو، عرفت أنه في هذه الايام مهووس بأميركية حمراء الشعر مديدة الساقين، وأنه يبذل طاقته كلها للايقاع بها...

أصبح العمل مع بروميرو، تحدياً لها، وهذا ما لا تقدر فتاة على إنكاره. كان بروميرو يجد متعته في انتقاء ثياب يبرزها أمام المشترين الوافدين من كل أنحاء العالم، في إطار ساحر لم تكن قادرة على تصور مثله من قبل... وفي أحد المواقع التي اختارها إطاراً لعرض أزيائه التقت أنونا بأليكسي.

تلك الليلة، جعلت عيناه السوداوان والاعجاب الجريء فيهما وجنتيها تصطبغان بحمرة الخجل وذلك حين كانت تسير وتدور فوق ممر العرض الضيق، وقد شعرت حينها بأنها شاهدته

من قبل في مكان ما.

ثمة شيء غامض، لكن في شموخ رأسه وفي عينيه السوداوين اللوزيتين شيء ما مألوف... ربما رأته قبل الآن.. لكن.. لا. هذا مستحيل... خاصة حين عرفت بعد فترة أو حين قال لها، إن وجوده هناك كان صدفة، وإنه جاء الى عرض الازياء لدعم الحفلة الخيرية التي أقيم العرض من أجلها تلك الليلة، ولأن صديقه الذي وجد نفسه مشغولاً في آخر لحظة، أعطاه التذكرة.

بعد انتهاء العرض، سمح للفتيات العارضات المرتديات تصاميم بروميرو، بالاختلاط مع الضيوف. كانت أنونا ترتدي فستاناً من «الفوال» القطني لونه بنفسجي فاتح، لم يمضِ إلا وقت وجيز حتى وجدت نفسها تتحدث مع مجموعة من انيقات المجتمع، اللواتي يمثلن غالبية الحضور، تستجيب لادعائهن المترفع الخادع الذي صقلت نفسها وعودتها عليه، وتصغي لغزل الرجال الذين تحلقوا حولها.

كانت تضحك لنكتة أطلقها رجل متوسط العمر، حين لاحظت أن الرجل الذي رأته خلال العرض يحدق فيها، يقف الآن الى جانبها. أحست بعينيه، اللتين ظنتهما مألوفتين تراقبان جانب وجهها باهتمام وبنظرات حميمة.. وحين تكلم لم يكن في كلامه مماطلة:

- الجو حار هنا سنيوريتا.

لكنته أجنبية، كما اعتقدت تماماً، مع أن لغته الانكليزية متقنة. التفتت نحوه، وعيناها البنفسجيتان تشجعانه:

- أجل... إنها أمسية جميلة.

- أتودين أن نسير معاً نحو الشرفة؟

- سيكون هذا رائعاً.

خرجا معاً عبر الابواب الزجاجية الى الخارج، فبدا لهما وهما يقفان هناك في الليل الحالك أن الضجة والحديث ولمعان القاعة الضخمة التي يُقام فيها الاحتفال، ابتعدت عنهما... وكأنهما وحدهما، الموجودان في العالم، والآخرون ليسوا إلا ظلال...

لم يتكلما.. بل سارا على غير هوادة، أقدامهما تتحرك دون أن تترك وقعاً فوق الحجارة العتيقة المرصوفة، التي توصل الى طرف الشرفة المحاطة بالدرابزين، ومنها الى بضع درجات حجرية قادتهما الى حديقة ورود. وقفا بضع لحظات بصمت يتنسمان رائحة الامسية العطرة الناعمة، رائحة الورد والقرنفل اللذيذة، رائحة أشجار عطرية تتساقط أزاهرها على حجارة الارض الحارة بفعل أشعة الشمس. ثم استدار إليها، وأمسك بيدها ليقربها نحوه ويعانقها.

سرعان ما وقعا في حب جنوني، حتى أن أسئلتهما عن الصدفة المذهلة التي جمعتهما لم تعد بذي قيمة. إذ ليس لها علاقة بالصديق الذي دعا أليكسي الى الاحتفال بقدر ما لها علاقة بالقدر الذي دفعه للتخلي عن الدعوة لأليكسي، القدر الذي دفعهما معاً الى الطريق الذي لا مفر منه. هذا ما كانا يؤكدانه لبعضهما وهما سائران في منتزهات لندن وحدائقها خلال أمسيات ذلك الصيف الدافىء الذي بدا أنه سيدوم لهما

الى الابد.. يومها علمت أنونا بكل بساطة أنها لم تكن قط سعيدة كما هي الآن.

وحلت المأساة المدمرة عندما اضطر أليكسي للعودة الى بلده.. إيطاليا. وذلك بعد أن أنهى مفاوضاته التجارية في لندن، المتعلقة ببيع منتجات مصنعه من أدوات الزينة والتجميل.. ومع أنها راحت تقنع نفسها بأن إيطاليا ليست بعيدة، إلا إنها كانت تشعر في قرارة ذاتها بأن المنطقة النائية التي تملك فيها عائلة أليكسي قصرهم الكبير ومصنعهم هو مكان منعزل بالنسبة لبقية البلاد، وقد استنتجت ذلك من خلال بضعة أمور أخبرها إياها عن حياته هناك.

لكن هذا كله لم يكن عائقاً بينهما، لأنه طلب منها الزواج في الامسية الأخيرة التي قضياها معاً. كانا يسيران معاً في المتنزه، يستمعان الى وشوشة أوراق الشجر التي يتلاعب بها الهواء العليل، توقفا ليتعانقا، كما يفعلان دائماً، ثم طلب يدها:

ـ أوه... أليكسي!

وتبللت عيناها بالدموع وهي تنظر إليه، ولم تعد تستطيع الكلام:

ـ توقفي عن هذا حبيبتي، فالوقت ليس للبكاء.

ـ لم أرغب في البكاء.. لكنني سعيدة.

ـ هذا منطق نسائي.. لكن منطقي. أيعني هذا أنك تقولين لي نعم؟

وعقدت ذراعيها حول عنقه:

ـ بالطبع.. وما كنت أظنك بحاجة لتسأل.

ـ لكنني أحتجت الى أن أسأل.. فتاة مثلك.. أوه.. ما أشدّ حاجتي إليك.

وكان هذا آخر العهد بينهم، ففي الصباح التالي طار أليكسي عائداً الى بلاده، ومعه وعد قاطع منها بأن تلحقه بعد شهر.

كان آخر عناق على أرض المطار مليئاً بالحزن والالم.. فهمت سببه فيما بعد..

قال لها:

ـ لا تنسي يا حبي... لا تنسي أنني أعبدك... مهما حدث...

ـ لا تقل هذا!

وبخوف مفاجىء لم تعرف سببه، وضعت خدها على صدره، وعقدت ذراعيها بقوة حوله.. وضحكت.

ـ أوه... قل إنك تحبني.. لكن لا تقل إن شيئاً قد يحدث.

رفعت بصرها إليه وكررت بثبات وتصميم:

ـ لن يحدث شيء... إلا زواجنا، وبعده نعيش بسعادة الى الابد.

شيء ما، بشأن ما قاله عن والدته المتسلطة، دفعها للقول:

ـ أرجو يا أليكسي أن لا تقف والدتك في وجه زواجنا.

ـ بالطبع لن تفعل! عندما ستراك ستحبك كما أحبك. تقريباً.. كما أحبك.

وابتسم.

عندما اقلعت طائرته أخيراً، تمنت أن تتخلص من فكرة مجنونة وهي أنه كان أقل ثقة بنفسه من كلماته.

لكن بعد أن طارت أنونا، بعد شهر كما اتفقا، الى روما ثم استقلت طائرة أخرى في رحلة داخلية أوصلتها الى مطار «فيرونا» وسط سهل «لومبارديه» في شمال إيطاليا.. كادت تقريباً تنسى هواجسها.

نعم هي لا تنكر إحساسها بالخيبة لأن سائقاً كان بانتظارها في المطار بدلاً من السنيورا بيري إستاليا أو أخت أليكسي غير الشقيقة جينا. وكانت قد انزعجت البارحة حين اتصل بها ليخبرها عن اضطراره للسفر الى باريس لأعمال مفاجئة.

لم يكن السفر عبر الريف الايطالي البارد الرطب، خلف السائق الصامت الجهم الوجه، باللقاء الذي حلمت به أنونا. ولم تكن هذه إيطاليا التي توقعت رؤيتها.. ارتعشت والسيارة تتسلق بهما الطريق نحو «ترنت» ونهر «أديغ» تارة على شمالهما وتارة على يمينهما.. والطريق تتلوى، فيظهر منهامنظراً واسعاً متغيراً في كل لحظة لأرض خضراء تقع على ضفتي النهر.

كان ضوء النهار قد بدأ يتلاشى حين انعطفت بهما السيارة عن الطريق الرئيسية.. الى طريق فرعي سارت عليه عدة أميال، طريق يحيط به أشجار عالية، في نهايته يقبع قصر رائع يظهر للعالم كله أهمية العائلة التي تملكه.. عائلة بيري إستاليا.

حين توقفت الليموزين الفخمة أمام القصر الضخم انحنت أنونا في مقعدها، تفتش دون جدوى عن باب قد يفتح في

القصر ترحيباً بقدومها، أو عن حركة ستارة قد تظهر أن شخصاً في الداخل مهتم بوصولها.

كانت السنيورا بيري إستاليا أشد اسمراراً من ابنها، تفتقر الى الفتنة، وقد جاهدت أنونا بحثاً عن شبه ما بينها وبينه. كانت أكبر سناً مما توقعت، وجهها منغضن لم يستطع الماكياج السميك أو الحمرة على شفتيها وخديها أن تخفيه. كانت عيناها عميقتين في محجريهما، برّاقتين تحت أهداب منخفضة تعطي وجهها مظهر الحذر والشر، عينان وجدتهما أنونا مثيرتين للازعاج.

ـ سنيوريتا!

وقفت أنونا حيث تركتها الخادمة وسط ردهة واسعة تنظر الى السيدة التي خرجت تستقبلها، ثم أحست أن يدها قد شدت بقبضة قوية، لكن على مضض. وبينما السيدة تلتفت لتقودها الى الصالون، انطلقت تحدثها بإيطالية سريعة لم تستطع فهمها فقالت:

ـ آسفة سنيورا.. بدأت لتوي بتعلم لغتكم. لكنني الى الآن لم أنجح في اتقانها جيداً.

أدارت السنيورا رأسها لتنظر إليها لحظات. ثم أدركت أن لا فائدة من حديث من طرف واحد، فأخذت تتحدث الانكليزية بلكنة ثقيلة.

ـ إذن سنيوريتا. لقد أخبرني ابني أنك عارضة أزياء.

ظهر عدم الرضى على وجهها وهي تناولها كوب عصير عبر الطاولة الرخامية التي جلستا حولها.

ارتشفت أنونا القليل من السائل البارد الخالي من الطعم وأجابت:

ـ أجل.. لقد التقينا.. في إحدى حفلات العرض الخيرية.

لم يظهر على المرأة أي تأثر بطريقة لقائهما، فسألتها:

ـ ألديك أبوان؟

ـ طبعاً.

ظهرت لمحة تحد في صوت أنونا، فقد قررت أن لا فائدة من ترك والدة أليكسي تسيطر عليها، فهي كما هو واضح متسلطة وما من طريقة للتعامل مع أمثالها إلا المواجهة...

ابتلعت لعابها في محاولة منها للسيطرة على اضطرابها.

ـ كما قلت لكم في رسالتي سنيورا، لدى أم وزوج أم.. ولسوء الحظ هما مسافران في الوقت الحاضر، ولا أستطيع الاتصال بهما.

ارتفع الحاجبان الرفيعان بشكل قنطرة كادت تصل الى شعرها المصبوغ أسود.

ـ هل العادة في انكلترا.. أن تتزوج الفتاة دون علم أهلها، أو نصيحتهم أو اذنهم؟

وضعت أنونا الفنجان من يدها لئلا يظهر ارتجافها:

ـ ليس في العادة، لكنني في سن تسمح لي بأن أقرر مثل هذه الامور.

لن تسمح لنفسها، مهما كلف الامر، أن تعترف لهذه المرأة العدوانية الطبيعة بأن خطة زواجها مبنية على أساس روماني. وعادت يد الشكوك الباردة الى الامساك بقلبها.. لكن لاحظت

أن على وجه المرأة تعبير ما فيه شيء من الاهتمام أو شيء من الاعتداد بالنفس.

ـ إذن.. سأطلب إيصالك الى غرفتك سنيوريتا.

امتدت يد مليئة بالحلى والمجوهرات فضغطت على زر خفي تحت الطاولة وعادت أساريرها الى الجمود.

ـ إذا كان هناك ما ترغبين فيه، فاطلبيه من الخادمة.

مالت أنونا الى الامام مبتسمة للمرأة:

ـ أرجوك.. ألا يمكن أن تناديني أنونا.. فنحن عما قريب سنصبح قريبتين.

ظهر الامتعاض على وجه المرأة، وقالت:

ـ نحن هنا حتى ذلك الوقت نفضل الرسميات.

ـ بالطبع.

جعلت لهجة التأنيب والكياسة وجه أنونا يحمر، فكان أن جلست مطأطئة الرأس وأصابعها تعبث بحقيبة يدها، وبقيت على ذلك حتى سمعت الباب وراءها ينفتح وتدخل الخادمة التي تلقت من سيدة القصر أمراً بايصال الضيفة الى غرفتها. فوقفت عندئذٍ أنونا، وقلق كبير يوهن ساقيها.

ـ وأليكسي.. أثمة أمل في أن يعود الليلة سنيورا؟

ـ لا.. لا أظن، ثم أنت تعرفين أنه يحضر اجتماع عمل مهم في باريس.. وهذا أمر مؤسف... لكنك ستلتقين على العشاء بأخته، ابنة زوجي، وبضعة أصدقاء. وبهذا سيكون معنا أصحاب... ولا تقلقي فلن يطول الوقت حتى موعد الزفاف.

مع أن الفم ابتسم إلا أن العينين بقيتا ساخرتين.

- ... وبكل تأكيد سيكون أليكسندر جوزف بانتظارك عند المذبح.

بينما كانت تلحق الخادمة، أحست أنونا، بأن الوقت يمر بطء في هذا الجزء من العالم.. القصر، رغم روعته، واعتباره مكاناً يرضي ذوق أكثر دارسي التاريخ دقة، لم تستطع عدّه «بيتاً».

للمرة الأولى فكرت في ما إذا كان من الرومانسية العيش في قصر كهذا... كلمة «قصر» كان لها وقع عظيم فهي لم تحلم قط بالسكن في قصر، لكن هذا القصر الضخم المتفتتة ممراته الحجرية الطويلة المرتفع سقفه، البارد مرمره الابيض والاسود.. لا يشبه أي شيء تخيلته... فالدفء المفقود فيه، جعلها تشتاق الى دفء شمس المدينة التي تركتها.. وجمال المنتزهات المليئة بأزيز الحشرات...

تلاشت أفكارها فجأة حين توقفت الخادمة أمام باب خشبي سميك وفتحته، وتنحّت جانباً لتدخل أنونا قبلها.

- شكراً لك.

وقفت لحظات داخل الباب تنظر حولها الى الغرفة الكئيبة ثم أدارت وجهها وقد ارتسم على شفتيها سؤال، تحاول إيجاد الكلمات المناسبة له... لكن الباب كان قد أقفل بهدوء وراء الخادمة.

كانت الغرفة ضخمة في اتساعها، وعلى السقف الفائق الارتفاع لوحات من آيات توراتية تناسب سقف كنيسة أو قاعة موسيقى... لكنها لن تعجبها وهي مستلقية في السرير تحدق

فيها.. إلا أن هذا لم يكن ممكناً، فللسرير أربع قوائم مرتفعة تجللها ستائر تخفي بكل تأكيد أي شيء عنها. وتساءلت عما إذا كانت ستشارك أليكسي هذه الغرفة، وهذا الفراش، بعد أن يتزوجا. وهل سيتأثر غزلهما وهما يعرفان بأن صور القديسين تحدق بهما وتتجسس على ما يفعلان؟ أرجفتها الفكرة.. لكنها ضحكت على مخيلتها الخصبة.

كانت جدران الغرفة مكسوة بحرير كان يوماً أخضر اللون أما الستائر فوقها فكانت من قماش سميك جاف أخضر.

تنهدت أنونا وتقدمت الى النافذة تتأمل الغيوم المنخفضة خارجاً والمطر المنهمر الذي يبعث الكآبة في النفس. حتى الطقس بدا مصمماً على أن يجعل ما يجب أن يكون أسعد أيامها، كئيباً كالحاً. أحست بتوق، كانت قد شعرت به قبل لحظات وهي تحت في الردهة، بأن تكون أمها معها... فالزواج التقليدي في انكلترا يحتم وجود الاهل والاصدقاء حول العروس.

عادت كلمات رفيقتها في الشقة الى ذهنها.. كلمات أزعجتها حين تلفظت بها آنا.. إذ قالت لها:

- أواثقة أنت أنك تقومين بما هو مناسب أنونا؟ بالنسبة لي لن تكون حفلة زفاف دون وجود عائلتي حولي. أتوقع أن تغضب منك أمك لهذا، فأنا أعرف أن أمي قد تغضب.

- أمي تثق بي!

لكن أهذا صحيح؟ أم أن أمها مهتمة بزوجها الجديد أكثر من اهتمامها بابنتها؟ أوليس لأنونا دوافع خفية لإخراجها بمثل

هذا الزواج، وبمثل هذا الحماس؟ ألا تحاول الرد على الجرح الذي عانت منه منذ ستة أشهر عندما وصلتها برقية من أميركا تقول: «تزوجت مايك هذا الصباح.. سعيدة الى حد بعيد.. أكتب لك قريباً.. مع حبي.. أمك».

ثم بعد اسبوع وصلتها رسالة: «يجب أن تفهمي عزيزتي، فالامر حدث بسرعة، ولم يستطع مايك تحمل خسارة الرحلة الى افريقيا للعمل، ورغب في أن أرافقه. مما اقتضانا ذلك الزواج.. سنغيب ثمانية أشهر، يمكنك بعدها الاقامة معنا في أميركا قدر ما تشائين».

حاولت أنونا يومها اخفاء مشاعرها تحت غطاء رقيق من الفرح المرير. مجرد التفكير بأن أمها التي تهوى حياة المدن، والحمامات المعطرة، والطعام الجيد، تقضي ثمانية أشهر في موقع حفريات أثرية في أفريقيا، جعلها تتألم. والآن، بكل تأكيد لا يمكن لأمها أن تتذمر عندما ستحذو ابنتها حذوها.. لكنها حتى لو أرادت الاتصال بأمها لما استطاعت ذلك، إنها لا تملك عنوانها.

ابتسمت أنونا لنفسها بقلق وهي تبتعد عن النافذة نحو كآبة غرفتها. على الاقل ليس هناك أي شك في أن هذا «قصر» لأنها الكلمة الوحيدة التي يمكن بها وصف هذا المكان. كيف لا تعتبره قصراً وله تلك الابواب الحديدية الضخمة، وشعار النبلاء المذهب، والكلبان المتوحشان المكشران عن انيابهما المثبت تمثالاهما الحجريان على عواميد عند المدخل. وتنهدت.. إنها تتخلى عن أي شيء حتى تجد نفسها ولو لمرة واحدة من جديد

مع تلك السعادة التي مرّت بها في علاقتها مع أليكسي.

عند العشاء تلك الليلة، انتعشت الامسية، كما وعدت السنيوريتا، بوجود أخت أليكسي من أبيه، وزوجين عجوزين لا يتكلمان الانكليزية لكن أنونا أحست بأنهما مدينان للسنيورا بيري إستاليا بوجودهما هنا فهما حتى لم يتحدثا بالايطالية كثيراً، كذلك.

لم تكن غرفة الطعام مرحبة أكثر من بقية المكان... تساءلت أنونا عما إذا كان هناك شيء ما في هذا القصر، يتحدى محاولة إنارته.. فغرفة الطعام التي تعطي انطباعاً أولياً بأنها مضاءة أكثر من اللازم بوجود ستة شمعدانات متشعبة مصفوفة على طول طاولة خشبية لماعة وبوجود ثريا من الكريستال فوقها مع عشرات من القناديل المضيئة اللامعة، تبدو كئيبة معتمة وكأنما ورثت هذه العتمة. فرغم المرايا التي تغطي الجدران وتعكس الانوار مرات ومرات، إلا أن هناك شيئاً يلقي ظلاله المشؤومة على الغرفة.

فكرت أنونا وهي تجلس الى يمين السنيورا بيري إستاليا الجالسة على رأس الطاولة، ان سبب تلك الظلال قد يكون في الناس المتواجدين هناك... فالرجال والنساء يرتدون الثياب السوداء الفاتحة، وهي وحدها ترتدي فستاناً أزرق من الحرير أضفى بعض اللون على ما حولها، وقد أظهرت نظرة السنيورا الممتعضة رأيها الصريح في ما تلبس. لكن صعب على أنونا أن تشرح سبب اختيارها هذا الفستان، إذ كان المفضل لدى أليكسي، وهي حتى آخر لحظة كانت تتوقع أن يدخل الغرفة

راكضاً، لينحني فوق كرسيها ويقبلها على وجنتها أمام الجميع.. مؤكداً لهم أنها الفتاة التي سيتزوجها في الصباح التالي.

في مثل هذا الوقت غداً سيكونان في جزيرة يونانية بعيدة يقضيان فيها أسابيع من شهر العسل. ومع ذلك بللت الدموع عينيها عندما تيقنت من أنه لن يأتي الليلة، لكنها منعتها بقوة من الانهمار بعد أن سمعت السنيورا تتحدث إليها.

ـ آسفة سنيوريتا إذا لم يكن أي من الضيوف يتحدث الانكليزية فنحن هنا مجتمع بعيد منعزل.. وعليك أن تكتفي بي وبجينا.

وضحكت باختصار فأجابتها أنونا:

ـ لابأس سنيورا... آمل أن أتعلم لغتكم بسرعة لأنسجم مع العائلة. لقد بدأت تلقي الدروس اثر مغادرة أليكسي، لكن في الحياة مشاكل كثيرة، حالت بيني وبين التقدم في الدراسة. ومن المؤسف أنني في المدرسة درست الفرنسية فقط.

فابتسمت جينا بطريقتها الخجولة المرتبكة، ترافقها نظرة اعتذار نحو زوجة ابيها:

ـ ستتعلمين بسرعة.. فستضطرين لاستخدام لغتنا في التسوق وادارة شؤون بيتك. و...

وقاطعتها السنيورا بدفع كرسيها الى الوراء، والتمتمة ببضع كلمات فهم الضيوف منها انها تدعوهم لتناول القهوة في «الصالون». وهناك جلس الجميع على كراسي وضعت بشكل نصف دائري حول النافذة المطلة على فناء صغير.. المطر

توقف، وضباب خفيف خيم على مستوى الارض، وكأنه على وشك أن يجف.

التفتت السنيورا بيري إستاليا الى أنونا، وأشارت بالمبسم الذي كانت تدخن من خلاله سيكارتها:

ـ هناك.. سنقيم مأدبة الاحتفال بالزفاف غداً.

أظهرت ضحكتها المرحة، أسناناً شبه صفراء.

ـ الطاولة الطويلة والكراسي جاهزة في غرفة وراء المطبخ.. وكل ما نتمناه أن يكون الطقس جيداً.

ـ أجل... لكن ماذا لو لم يكن اليوم جيداً؟

ـ آه.. إذا أمطرت... إذا أمطرت فستكونان أكثر لهفة لبدء رحلة زفافكما.

سرعان ما أظهر الضيوف رغبة في الذهاب، ربما بتلميح من المضيفة المتسلطة. وبعد الكثير من الانحناء والشكر للسنيورا على الشرف العظيم لدعوتها لهم الى قصرها أوصلتهم خادمة الى الباب. لحقت بهما السنيورا الى الردهة، وكان صوتها هو المسيطر على الحديث، وبقيت جينا مع أنونا وحدهما لبضع دقائق، فمالت الفتاة الاكبر سناً الى أنونا بتعابير ودية. كانت امرأة متوسطة العمر بسيطة، يبدو بوضوح أنها تعيش تحت حكم زوجة أبيها:

ـ ما أشدّ سعادتي بانضمامك الى عائلتنا. أظن أن أليكسندر جوزف محظوظ فعلاً.

أحست أنونا بالدفء للمرة الأولى في هذا القصر:

ـ شكراً لك جينا... لكن، تدعونه جميعاً أليكسندر

جوزف...؟

ـ أوه.. هذا لتمييزه عن الآخر.

بينما كانت تتكلم، سمعتا وقع أقدام السنيورا تقترب ويبدو أنها سمعت الجزء الأخير من الحديث إذ راحت تنقل بصرها من ابنة زوجها الى أنونا ومنها الى جينا وكأنها تطلب إيضاحاً، وارتفع حاجباها الرفيعان بعد أن عرفت، فقالت:

ـ صحيح... والآن سنيوريتا سنصعد الى فوق لأريك خمار الزفاف.

فهزت أنونا رأسها محتجة:

ـ لكن.. لن أرتدي ثوب زفاف، بل ثوباً بسيطاً أعتمر معه قبعة على جانبها زهور...

واختفى صوتها بعد أن هزت السنيورا رأسها.

ـ هذا لن ينفع، تعالي.

وتوجهت نحو الباب بطريقتها المتسلطة فنظرت أنونا برجاء الى جينا، التي هزت كتفيها بعجز، ثم هزت رأسها يائسة. إذن ليس أمامها خيار سوى اللحاق بالعجوز عبر الردهة ومنها فوق الدرج حيث أخذ اسلاف العائلة ينظرون إليها من لوحاتهم المعلقة في الرواق فوق الدرج. لوحت اليد التي تشبه المخالب الى اللوحات.

ـ سترين سنيوريتا أن كل عرائس سلالة بيري إستاليا ارتدين «خمار العائلة».

ونظرت أنونا الى صورة امرأة ترتدي ثياب العصور الوسطى ثم الى لوحة أخرى أكثر حداثة وهما تستديران الى الممر الرئيسي.

كانت كلتا العروسين تضعان الخمار الذي تشير إليه العجوز وقد ارتفع عن وجههن... «خمار» حريري رائع، عليه تطريز فخم وزهور وعصافير على موضع الرأس وتاج مرتفع من اللآلىء.

سيفسد هذا الخمار، دون شك، الثوب العصري الذي صممه لها بروميرو خصيصاً، فكان أن تملكتها رغبة رفض الخضوع الى تقاليد العائلة، بهدوء وحزم. وازدادت هذه الرغبة قوة عندما رأت أن الخمار الممدد على السرير في غرفتها أصبح أصفر بسبب القدم. بل يعتبر وسخاً بالنسبة لفستانها الابيض. لكن عندما أظهرت السيدة عدم قبول أي رفض.. هزت أنونا كتفيها.. وهي تفكر في أن احترام تقاليد العائلة، ثمن زهيد عليها أن تدفعه. وإذا كانت راغبة في تلطيف تصرفات «حماتها» نحوها فعليها الاستسلام وارتداء الخمار... لكنها، اكتشفت فيما بعد، وذلك بعد فوات الأوان، في نور الكنيسة العتيقة، أن مثل هذا الخمار الفضفاض، المطرز السميك، يصلح أن يكون ستارة فعالة جداً.

أحست بالغربة في اليوم التالي، وهي في السيارة نفسها التي أقلتها من المطار، والتي يقودها السائق المنطوي المتحفظ بنفسه، لكنها في هذه المرة كانت السنيورا بيري إستاليا تجلس الى جانبها، تُظهر تكلفاً مع أنها توشك على أن تسلمها الى عريسها في الكنيسة.

فكرت أنونا في أن عليها نسيان هذا الامتعاض الذي تظهره السنيورا ما دامت في نهاية المطاف ستجد أليكسي في انتظارها، وتلاشى ضيقها وهي تفكر في ذراعيه حولها. أليكسي. قريباً

ستشعر بيده تمسك يدها، وستعلم عندها أنها أصبحت بأمان.

قطع الصوت الثابت الذي لا يمكن مناقشته أفكارها:

ـ تعالي سنيوريتا.

وتوقفت السيارة أمام بضع درجات حجرية عند أعلاها كنيسة صغيرة.

عدت عشرين درجة وهي تصعد، وقبضة السنيورا بيري إستاليا على مرفقها. لتسمح لها بابقاء اهتمامها منصباً على رفع طرف فستانها عن الدرجات... ألا يمكن لهم، أو لأحد الخدم، أن ينظف هذه الدرجات من أجل يوم الزفاف؟ عند القمة توقفتا، وابتسمت السيدة، ثم مدت يدها لتنزل برقع الخمار على وجه الفتاة. وقالت:

ـ سيكون لأليكسندر جوزف عروس جميلة.

واستدارت تمد ذراعها لأنونا، وتقودها الى داخل الكنيسة.

كان الكاهن العجوز يرتدي ثوب الكهنة الابيض، الغني بالتطريز المذهب. ابتسم وأحنى رأسه، ليبدأ المراسم... تأثرت أنونا بغرابة هذه المراسم وجمالها، التي فاحت منها رائحة الزنبق المنبعثة من المزهريات الطويلة في الكنيسة الدائرية الصغيرة.

كانت مراسم الزواج هذه غير عادية بالنسبة لها.. فلم تكن قد رسمتها في مخيلتها الرومانسية، خاصة هنا في هذا المعبد الخاص بعائلة إيطالية عريقة حيث لا أحد حولها تعرفه... أيمكن أن يكون هناك ما هو أكثر غرابة من هذا؟ ثم فجأة تلاشت كل مخاوفها.

تعلقت يدها بذراع أليكسي.. وسرقت نظرة جانبية إليه...

لكنها نظرة أغشاها ذلك البرقع المطرز السميك، الذي جعلها لا تتعرف إلا الى جانب وجهه الاسمر عندما مرا أمام نور إحدى النوافذ العالية المركزة في أعلى الجدار الحجري السميك.

ما أطوله!... إنه أطول مما تتذكر، وعطره مختلف، فهو ليس ذاك العطر الذي مازحته بشأنه عندما كانا في لندن، قائلة له لتغيظه إنه الصديق الثالث الذي يستخدمه... وثار سخطه يومها... ومن المؤكد إنه لم ينسَ الأمر فهذا العطر كان غريباً أنيقاً ذا لمحة شرقية. وشدت قبضة أصابعها على يده، فإذا بالردّ القوي يجعلها تلتقط أنفاسها من الحب والفرح.

عادة.. الكوابيس لا تختلف إلا بالتفاصيل، إما الاساس فهو دائماً واحد. وقفت تستمع الى المراسم، وبرقع الخمار السميك يغطي وجهها، ولمسات أصابعه تطمئنها. كانت الكلمات التي ينطق بها الكاهن أزلية، مهما كانت اللغة التي تقال فيها. فمع أنها كانت بلسان لا تفهمه إلا أنها تشبه كلمات «الصلاة الموحدة» التي يستخدمونها في انكلترا.

كانت تعرف ما يكفي من إيطالية لترد عندما يطلب منها الرد في الأماكن المطلوبة. بعد لحظات كانا يبتعدان عن المذبح المرتفع نحو غرفة الكاهن الصغيرة وهي تتغنى باسمها: أنونا لانكستر، لآخر مرة. وقعت على الاوراق مرتين: مرة أمام الكاهن، ومرة أمام ممثل مدني للسلطة. عندها وعندها فقط انحنى ليكشف عن وجهها البرقع، فإذا بمرحلة جديدة من الرعب تظهر لها في كابوسها الطويل هذا، فهي لم تنظر الى وجه أليكسي، بل الى وجه غريب عنها كل الغرابة.

وابتسم الغريب لها وكأنه راضٍ عما فعل.. . بينما راحت أنونا تفتش في الوجه الذي يشبه تماماً وجه أليكسي، عما يجعلها تفهم ما يجري. وحدها أنغام الارغن المرتفعة أخفت الصرخة التي خرجت من بين شفتيها، قبل أن تغيب عن الوعي.

■ ■ ■

٢ ـ في القفص الحديدي

غرفة النوم مألوفة.. هي تعرف هذا الجدار ذا الرفوف والخزائن الخشبية التي تحوي مساحة تكفي لوضع ملابس ملكة. كما تعرف أن هذه القارورات وزجاجات العطر، والمكياج الجميل، والحقيبة الكحلية التي اشترتها خصيصاً لماكياجها في لندن تعود جميعها إليها.

عبر الباب المفتوح قليلاً في الجدار المقابل رأت الحمام الذهبي اللماع والزهري، الذي استحمت فيه أكثر من مرة في الايام الأخيرة.. ثم عاد الضباب ثانية فأغشى بريق العينين البنفسجيتين، وأطبق على الاسنان اللؤلؤية المرتجفة ألماً.

الامر صحيح إذن.. . الكابوس أكثر من حلم مزعج.. إنه حقيقة مرعبة تلاحقها.. حلم دام ما يزيد عن أسبوع.. لقد تبين لها منذ ذلك اليوم في الكنيسة، بعد مراسم الزفاف أنها تزوجت الرجل الخاطىء.. رجلاً لم تشاهده قط من قبل. يومها قال لها بصوت خفيض في اللحظة التي التصقت شفتاه بخدها:

ـ كوني هادئة أنونا.. .

من بعيد كان الارغن يعزف قوياً، ضخم الصوت في الكنيسة الصغيرة:

- إذا كنت تريدين مصلحة أليكسي، فلا تتفوهي بكلمة.

وابتسم لها كأي عريس. وسمعت الرجل الذي تزوجته يتحدث الى الكاهن، في الوقت الذي مادت بها الارض من تحتها وأطبقت الجدران عليها.

خلال المراسم سمعت عدة مرات أنونا اسم اليكسندر جوزف، لكنها لم تلتفت الى الرجل بجانبها، بل لقد هنأت نفسها لأنها أصبحت السنيورا اليكسندر جوزف.

لم تع تماماً ما جرى إلا بعد أن انطلقت بهما السيارة... فانتفضت تتسأل:

- ماذا جرى؟ أين أليكسي؟

- اصمتي! للحظات فقط.

كان يتكلم بانكليزية متقنة كأليكسي تماماً.. راقبته وهو ينحني ليضغط زراً، جعل زجاج يرتفع ليشكل فاصلاً بينهما وبين السائق. ثم التفت لينظر إليها بوجه ليس فيه ما يدل على مشاعره اطلاقاً.

هذه هي المرة الأولى التي تلاحظ فيها شبهه بأليكسي، فهو يكاد أن يكون هو، إلا أن وجهه أنحف وقسماته أشبه بقسمات صقر ورثها عن أجداد شرقيين ربما.

- فيمَ تفكرين أنونا.. أتظنينني أليكسي؟

- لا.. لا أبداً.. أرجوك، هل لك أن تشرح لي هذه التمثيلية؟ وأخبرني.. أرجوك.. أرجوك.. ما حدث لأليكسي؟

- أتثقين بي؟ إن وثقت بي أشرح لك كل شيء فيما بعد؟

- أثق بك؟ ولماذا أثق بك؟

تجهم وجهه، وازدادت عيناه اسوداداً وهو ينظر إليها:

- لأنني أخشى أنك لن تستطيعي الوثوق بأحد سواي في الوقت الراهن.

- سأقول لأول شخص التقيه إنك لست الرجل الذي أردت الزواج منه!

فضحك:

- إذن لماذا لم تقولي هذا في الكنيسة؟ لماذا سمحت لي بتقبيلك؟ لماذا سرت معي وذراعانا متشابكتان؟ ألا ترين أنه لمن السخف التفوه بمثل هذا القول الآن؟ ماذا سيظن الضيوف.. سيعتقدون أن العروس تظهر تحفظات عذرية نادراً ما تظهر هذه الايام. وسيقولون إن العروس بحاجة الى وجود أمها معها وان من دواعي الشفقة أن تكون وحدها. لكنهم سيكونون واثقين من أن رقة العريس ستنسيها مثل هذه المخاوف النسائية المفهومة.

رفعت أنونا قبضتها لتضربه على صدره:

- أكرهك! أكرهك!

وأحست بضربات قلبه تحت يديها، وبحرارة قبضته، فتدفقت دموعها.. ثم تركها وأخرج منديلاً ليمسح لها وجنتيها.

- سامحيني يا صغيرتي!

في صوته حنان لم تتوقعه، فالتفتت إليه لتتأكد من أنه ليس أليكسي.

- سامحيني لأنني لم أكن رفيقاً بك، خاصة أنني وعدت اليكسي بأن أكون حنوناً معك بشكل خاص.. يا حبيبته أنونا.

همست وعيناها تجولان في وجهه:

- أليكسي؟

- أجل. أليكسي هو ابن عمي، ولأجله وافقت على هذه التمثيلية الغبية.

- هو من طلب منك فعل هذا؟

- أجل.

- لا أصدقك!

لم تدرك أنهما دخلا أبواب القصر حتى وقفت السيارة أمام الباب الامامي، فسارع ليقول:

- حسناً، ما هو قرارك؟ ستثقين بي؟

- لا.. لا! بالطبع لن أثق بك! تباً لك! اين هو أليكسي؟ ولماذا يطلب منك العناية بي وهو يريدني زوجة؟

فصاح بها بصوت بارد لاذع كالسوط:

- اهدئي! اهدئي! وسأخبرك. إذا أردت مساعدة أليكسي، فافعلي ما أقوله لك. والآن كوني حذرة.. انطونيو يراقبنا!

وأشار بعينيه الى السائق، الذي كان يتقدم ليفتح الباب وأكمل:

- سيقدم تقريراً عن كل شيء للسنيورا الآن.. دعينا لا نشمتها بنا.

- مساعدة أليكسي؟ ماذا تعني؟ أهو في خطر؟

كانت هذه الكلمة الوحيدة التي سجلتها ذاكرتها المضطربة.

- بالطبع لا. إنه بخير تماماً.

وانفتح باب السيارة، فرفع إحدى يديها الى فمه ليخفي حركة شفتيه متظاهراً بتقبيل يدها:

- لا أستطيع شرح الامر لك الآن. لكن أستطيع القول لك إنك ستكونين معي امنة.. فلننهِ حفلة الزواج هذه بأسرع وقت ممكن.. ثم أخبرك بعدها كل شيء... ثقي بي.

وهذا ما فعلته أنونا.. إلا أنها لم تستطع معرفة السبب. أليس في القصر حقاً من قد تثق به سواه؟ بكل تأكيد لا تستطيع الثقة بالسنيورا! ولا بجينا؟ فجينا كانت تعرف ما سيحدث...

إذا كان الضيوف قد اعتقدوا أن العروس صامتة متحفظة، فلا بد أنهم عزوا ذلك الى صغر سنها. نعم إنه لمن المؤسف ألا تكون والدتها معها، لكن من الناحية الأخرى هي محظوظة لأنها تزوجت من زوج رائع مثل السنيور أليكسندر جوزف.

كادت أنونا مرة تفقد سيطرتها على أعصابها وذلك حينما سمعت العجوز المتسلطة الواقفة تتحدث مع ضيوفها وهي تحوّل بصرها الى وجه العروس وابتسامة خبيثة مزدرية تظهر على شفتيها.

- ربما آن لك أن تصعدي الى غرفتك وتغيري ملابسك سنيوريتا.. أوه...

رفعت يدها الى فمها واعتذرت ساخرة.

- بالطبع أصبحت الآن سنيورا، وما عدت سنيوريتا.

أحست أنونا بالدم يتصاعد الى وجهها، فاجتاحتها موجة غضب عصفت في شرايينها عصفاً. لكن قبل أن ترمي بالكلمات الثائرة في وجه العجوز، أحست بيد تلمس ذراعها:

- آن الوقت لتغيير ملابسك «كارا».

الكلمات كانت رقيقة ناعمة.. فرفعت أنونا نظرها الى عينيه

لحظة: يا لعمقهما المدهش الذي لمحت فيه إعجاباً بها.

التفتت الى المرأة:

ـ طبعاً.

شاهدت جينا تقفز من مكانها عند طرف الطاولة، وتتقدم نحوها تسأل عما إذا كانت العروس بحاجة الى مساعدة.

جمعت أنونا كل طاقتها لتتمكن من أن ترد ببرود:

ـ لا شكراً لك جينا. ليتك فقط تزيلين لي الدبابيس التي تمسك بالخمار.

انتظرت لحظات الى أن ناولتها الدبابيس.

ـ شكراً جينا..

ابتسمت ابتسامة فارغة للضيوف قبل أن تتوجه نحو الباب وراءها الذي قادها الى الدرج ومنه الى القاعة الزجاجية عبر الحديقة. لكن الهواء هبَّ فجأة فعلق الخمار في أشواك وردة كالعريشة، حين أسرعت لتبعده علق القماش الحريري بمئات من الاشواك، فتمزق إلا أنها شدته في محاولة منها لانقاذه.

تناهى إليها من الخلف صرخة ألم كان مصدرها السنيورا بيري استاليا، التي قفزت من مقعدها راكضة نحوها. والتفتت أنونا بتساؤل واحتقار فطالعها وجه غاضب تحاول صاحبته انقاذ القماش الناعم من الاشواك المتوحشة. صوتها المنخفض الاجش المتمتم تجاوز كل امكانيات الترجمة بين اللغات. عندها نظرت إليها أنونا وهي تحس بشماتة المنتصر وحثت الخطى صعوداً الى غرفتها.

بعد أن بدلت ملابسها، دفعت الثوب المصفر وثوب زفافها

الذي كانت تريد ارتداءه الى حقيبتها. . لكنها لم تكن تدرك أن نحيبها الذي يملأ الغرفة يُسمع صداه في الممر. كانت تقفل الحقيبة حينما فتح الباب.. ودون أن تلتفت علمت أن السنيورا تقف هناك. قوة مشاعر العجوز دفعت أنونا الى اجبار نفسها على الاستمرار فيما تفعل.

ـ أتدركين.. أنك قد دمرت شيئاً لا يعوَّض وذلك بقلة اهتمامك.

نظرت إليها أنونا ببرود وكأنها فعلاً دهشة:

ـ دمرت؟ ماذا؟ أوه.. أتعنين ذلك الخمار الرث القديم الذي قام بما تريدين منه، فأخفى عني وجه من تزوجت.. سنيورا؟ لقد أخفيت الحقيقة بواسطته عني. ماذا فعلت سنيورا؟ بي.. وبأليكسي؟

جعلت ضحكة السنيورا الكريهة، والمجنونة، عيني أنونا تنظران الى عينيها اللتين ظهر فيهما الجنون الحقيقي:

ـ أنا بك لا أهتم أبداً. أما بأليكسي «مي بابينو» ابني.. ابني العزيز. ابني الغبي المسكين.. فأخاطر بكل شيء، لاحميه من نفسه!

كان هناك شيء ما في خليط اللؤم والحقد، والضعف البارزة جميعها في وجه المرأة، حتى أن أنونا أحست بالرعب في أسفل عمودها الفقري. لكنها أجبرت الكلمات على أن تخرج منها عبر شفتين جمدهما ذعر طفق بجناحها.

ـ لكن.. لماذا سنيورا؟ لماذا؟ تجبرتني على المرور بهذا الامر.. المرعب.

تفرست في الوجه الاسود ذي العينين اللامعتين المرعبتين:

ـ أين أليكسي؟ أهو مريض؟ أحدث شيء..

ـ أليكسي بخير. لكنه ثاب الى رشده، وهذا كل شيء.

لم يكن هناك مجال للخطأ في عبوس العجوز. أردفت:

ـ أتعتقدين أن فتاة مثلك، ليست بأعلى درجة من بائعة في متجر، يمكن أن أسمح لها بالزواج من مالك كل أملاك عائلة بيري إستاليا؟ عائلتنا هي إحدى اقدم العائلات الحاكمة في إيطاليا، ومنذ ثلاثة قرون لم يدخل دم غريب في عروق أفرادها. أتخالينني أسمح لابني أن يرتكب مثل هذه الخطيئة؟

وضحكت بسخرية مدروسة ملؤها الجنون:

ـ لكن كيف لك أن تفهمي؟ أنت من لا تفهمين عاداتنا، انكليزية! تدهشني وقاحتك...

بعثت وقفتها المسرحية الدرامية البرودة في أوصال أنونا.. لكنها أخيراً اكتسبت سيطرة على أعصابها، ودهشة:

ـ إذن لماذا لم تخبرني بهذا كله؟ لماذا لم يخبرني أحد؟ لماذا لم يخبرني أليكسي بهذا؟

وقاومت نفسها لئلا تتصاعد الهستيريا فيها ثم أردفت:

ـ لماذا تركتموني أمر بهذه التمثيلية، وبهذا الادعاء القذر بالزواج؟

ساد صمت طويل... دارت خلاله العينان السوداوان اللامعتان في وجه أنونا بسرور ظاهر، ثم تحدثت ببطء كمن ينتقي كلماته:

ـ أليكسي.. أليكسي الحبيب.. كان دائماً طيب القلب..

وما من شك في أنه لاحظ لهفتك، فلم يرغب في احباطك. لكنه حين وصل الى وطنه أدرك أن مثل هذا الارتباط غير ملائم، فعدل عن رأيه. ومع ذلك عجز عن الاعتراف لك. فسمح لأمه بأن تدبر الامور عنه.. أما بالنسبة للأمر الآخر سنيوريتا، الامر الذي تسمينه ادعاء، فليس هناك أي ادعاء، طبعاً. بل ليس هناك أدنى شك في أنك قانوناً متزوجة من ابن عمه أليكسندر جوزف.

فجأة فرقعت اصابعها دليل الانتصار الشيطاني، وظهرت نظرة مجنونة مخيفة في عينيها المختبئتين تحت أهدابها السوداء:

ـ أتمنى لكما التمتع.

واقفلت الباب وراءها.

على رغم العذاب الذي كان يمزقها، أحست أنونا، والسيارة تنطلق بها وبأليكسندر جوزف عبر أبواب القصر، بارتفاع بسيط في روحها المعنوية. وكأنها تتذكر تأثيراً مغناطيسياً مسلطاً عليها. اسندت رأسها الى ظهر مقعدها، وتفكيرها فارغ من أي شيء، مرهقة من الضغط العاطفي، متوترة من محاولاتها فهم أو حتى التفكير فيما حدث لها.

حين أحست بالسيارة تتوقف الى جانب الطريق، التفتت الى الرجل الذي تزوجته بحيرة.. إن له شفتي أليكسي، وعينيه وصوته.. ومع ذلك.. ومع ذلك!

ـ أنونا.. أنت تعانين من الصدمة، ولن يلومك أحد بامينو! الاقامة في القصر ترهق أعصاب ساكنيه فكيف لمن لا يرغب فيها. لا أظن أن أليكسي هيأك لمثل هذا. أصحيح؟

اللطف في نبرة صوته أعاد الالم الى صدرها. وأنامله ردّت الشعر المتطاير عن وجهها، وابتسم:

ـ أتثقين بي؟ أسألك مجدداً.

ردت عليه دون أن تفهم:

ـ أثق بك؟

ـ أجل.. اسمعي «كارا» أنت لم تأكلي شيئاً عند الفطور، ربما لأنك كنت قلقة لم تستطيعي تناول الطعام.. لذا سأصر على أن تأكلي شيئاً الآن.

مد يده الى مقعد السيارة الخلفي، فقرب منه سلة، فتح غطاءها، ودون تفكير تقريباً، مدت يدها فتناولت قطع الخبز الرقيقة المدهونة بالزبدة و«الباتيه». بعد أن انتهت، صب لها كوباً من الشاي، من ابريق حافظ للحرارة، ثم أخذ الكوب الفارغ بعد قليل ومسح لها فمها بمنديل، ثم وضعه مفتوحاً على ركبتيها:

ـ هذا أفضل. والآن سأقترح عليك النوم «كارا».

خرج من السيارة ففتح بابها ثم شدّ مقبضاً أرجع به المقعد الى الوراء ليصبح سريراً، أجفلت، وتهاوت نحوه، فامتدت يداه لدعمها، والتفتا حول خصرها. فاحمر وجه أنونا، ثم رفعت يدها المرتجفة ليعيد شعرها الى الوراء وهي تتمتم بخجل:

ـ آسفة.

نظر إليها لحظات قبل أن يتركها. انحنى داخل السيارة فرتب لها المقعد، ووضع لها وسادة، ثم استدار ليساعدها على الاستلقاء... فاستلقت بكل طاعة وهي تحس بالارتياح لوضع

رأسها فوق مكان ما في محاولة لاكتساب بضع ساعات خلاص من الكابوس الحي الذي زجت فيه.. تحسست نعومة الغطاء الصوفي فوقها، قبل أن تسمع صوت الباب يقفل، ثم جلس وراء المقود ليلامس وجهها بلطف:

ـ نامي يا أنونا. أمامنا سفر طويل.. وحين نصل الى نهاية رحلتنا سأجيب عن كل أسئلتك.

ثم سمعت تنهيدة خفيفة.

كان الظلام قد حل، عندما أحست بيدين غير لطيفتين تهزانها لتستيقظ... إلا أن دافعاً غريزياً حثّها على ابقاء عينيها مغمضتين في نوم مزيف، تجنباً للعودة الى الحياة حيث لا ينتظرها إلا الالم. لكن الرجل الذي كان يكلمها، وينطق باسمها بلهفة، لم يكن لديه صبر عليها.. فصفعها بلطف ليعلمها بأن صبره ينفذ:

ـ استيقظي أنونا! أعلم أنك صاحية.

أبعدت يده عنها، وأدارت وجهها فدفنته في الوسادة:

ـ لا... لا!

ـ بلى.

وشدّ يديها، ثم بحركة سريعة واثقة أوقفها على قدميها. نظرت إليه للحظات قبل أن تتذكر ما حصل كله. فالتمعت عيناها بغضب مفاجىء:

ـ أنت!

رمت الكلمة بطريقة هي أشبه بالاهانة، لكن التسلية التي ظهرت على وجهه زادتها انزعاجاً.

ـ أجل... فأنا لم أصبح بعد نومك شخصاً مقبولاً... والمؤسف أنني رفيقك..

تلاشت الابتسامة عن وجهه فجأة:

ـ المؤسف أيضاً أنك لي... أتودين أن نستفيد من الامر؟

ـ أنا لم أخترك! ولا علاقة لي بالوضع الذي نحن فيه الآن.

كان أكثر ما أزعجها أنه أول رجل يقول إنه غير سعيد بوجوده معها.. رد عليها:

ـ هذا صحيح أنونا. وأعتذر على قلة كياستي معك.. هل لنا أن نقول إننا في هذا الوقت، مضطران للالتصاق ببعضنا، و...

ـ أمن المفترض أن يكون هذا اعتذاراً؟

ـ نعم اعتذار عن اضطرارنا للالتصاق ببعضنا بعضاً ومحاولة للاستفادة قدر المستطاع من الوضع. ثم أنا متعب من القيادة، وجائع... وإذا لم أرُق لك، تغاضي عني.. أتسمحين بأن ندخل الآن؟ أنا أكيد بأننا سنكون أفضل حالاً بعد وجبة طعام، وأضمن لك أن الطعام هنا ممتاز.

للمرة الأولى، نظرت حولها فرأت أنهما في موقف سيارات أمام فندق صغير. كانت النوافذ المربعة الصغيرة المضاءة تبدو مرحبة. شاهدت عبر الاشجار خارج المطعم طاولات موضوعة على الشرفة الخضراء وسمعت دمدمة أصوات، وقرقعة كؤوس، وأدوات طعام.. وشمّت خليطاً مزجه رائحة الريف ورائحة اللحم المشوي، ورائحة القهوة اللذيذة.. فأدركت أن ما يقوله صحيح. إنها تكاد تموت جوعاً، وإذا لم تأكل قريباً فسيغمى

عليها.

دون أن ينتظر موافقتها، وضع يده تحت مرفقها فقادها بثبات الى مدخل الفندق... وإذا بها في بهو صغير، فتوقفت قليلاً حتى تقدم مرافقها الى طاولة عليها رجل مشغول:

ـ بوناسيرا هنري!

وكان هذا كل ما فهمته أنونا من حديثهما.. ووقفت تحدق الى واجهة عرض زجاجية معلقة على الجدار، عليها بعض التعليقات بلغة البلاد. تظاهرت بالاهتمام الزائف بها. لكنها رأت في انعكاس الزجاج أن الرجل الآخر يفتش بين المفاتيح المعلقة على اللوحة وراءه.

لكن قبل أن تفكر في السبب، كانا يقفان معاً الى جانبها تتعرف الى مالك الفندق الذي مد يده إليها، ثم انحنى، وكان واضحاً أنه يقدم تهانيه لها.

عيناها الزرقاوان البنفسجيتان سعتا لتسألا عيني زوجها السوداوين اللتين استجابتا لها بمرح ساحر، قبل أن تظهر فيهما الشفقة عليها وقبل أن يمسك صاحبهما بذراعها ويقول شارحاً:

ـ هنري دهش قليلاً بزواجي، لكنه يقول إنه بعد أن رآك يفهم السبب تماماً. وهذا اطراء لك.

ـ أوه... غراتسي سنيور.

ابتسمت بما أوتيت من جهد.. فابتسم الرجل ثم استدار نحو باب المطعم، وأرشدهما الى طاولة في الزاوية. ثم بعد أن تمتم مهنئاً مرة أخرى ناولهما لائحة طعام كبيرة مكتوبة باليد:

ـ أرجو المعذرة سنيور جوزف.

وابتعد عنهما.

حدقت أنونا بلائحة الطعام الطويلة دون أن تفهم كلمة مما فيها.. ثم وضعت اللائحة من يدها:

ـ على الاقل الآن، عرفت أن لك اسماً!

ـ أكنت تشكين في هذا؟

ـ لم تذكره لي.

ـ لكنني ظننتك تعرفين يا عزيزتي. لقد استخدمته زوجة عمي بما فيه الكفاية. والكاهن استخدمه كذلك في مراسم الزواج. إنه أليكسندر جوزف بيري إستاليا.. إنه تقريباً، ليس الاسم الذي كنت تتوقعينه.

فصاحت بعاطفة جياشة جعلتها تتجاهل الساقي الواقف أمامهما:

ـ لن أستطيع مناداتك بأليكسي!

اشتد ضغط شفتيه ثم بانت البرودة في عينيه تحذرانها:

ـ إذن... لا حاجة بك لهذا الاسم. فأنا دائماً أدعى جوزف، وأفضله.

التفت الى الساقي، فتبادل الرجلان حديثاً سريعاً، تاركين أنونا تغلي غضباً وإحباطاً.. لاحظت أنونا أن النساء هنا يرتدين أجمل الملابس ويضعن أفضل زينة ويسرّحن شعورهن خير تسريحة.. رفعت يدها بعصبية الى شعرها، وشدت القميص الى الاسفل داخل الجينز، وهي تتمنى لو ذهبت الى الغرفة المخصصة لزينة السيدات قبل أن تدخل الى هنا.

أخيراً انتهى حديث جوزف والساقي، كما انتهى الرجل من

تسجيل الطلبات، انحنى مرتين وهو يتمتم بكلمات نهائية، والتقط لائحتي الطعام وتحرك مبتعداً يشق طريقه نحو الباب الذي قررت أنونا أنه يقود الى المطبخ.

فجأة سألته أنونا بعدوانية:

ـ أتعرف الناس على الطاولة التالية؟

نظر إليها جوزف ببرود، ثم نظر الى المكان الذي أشارت إليه:

ـ أتعنين تلك المرأة الجذابة ذات الفستان البرتقالي والرجل ذو البذلة الرمادية؟

ـ أجل.

ـ لا.. لا أظنني أعرفهما... لماذا تسألين؟

ـ أشعر وكأنهما يتحدثان عنا... عنك.

هز كتفيه وكأن المسألة لا تهمه. ثم قال ببرود:

ـ طلبت لك الطعام إذ بدا لي أنك غير مهتمة. ولعل ذوقك ليس صعباً فيما يتعلق بالطعام.

ـ لا أفكر في الطعام في هذه اللحظات.

ـ آه.. حسناً.. لا صعوبة إذن. طلبت لك الحلزون، بداية، ثم حبّار البحر المطبوخ... ولئلا تفوتك الوجبة التي تشتهر بها المنطقة، طلبت لك لحم جواد ولد لتوه.

فغرت أنونا فمها وصاحت غير مصدقة:

ـ لكن... لا يمكنني أكل هذا النوع من الطعام! لم يكن من حقك طلب مثل هذه الاشياء دون سؤالي!

ـ لكنك لم تظهري اهتماماً. لذا أردت أن يكون لك وجبة

لن تنسيها.

ـ لكن لا أستطيع...

ـ بل تستطيعين. فإذا لم تأكلي من طعامه يا عزيزتي فسيحس هنري بالاهانة... ثم يجب أن تجربي الاطباق الغريبة قبل أن تقرري إذا كانت تعجبك أم لا.

عاد الساقي فوضع أمام كل منهما بعض البطيخ، ثم ألقى كلمة ترحيب وانسحب ثانية. فنظرت الى جوزف نظرة تساؤل:

ـ لكنك لم تذكر البطيخ!

التقطت ملعقتها، فقال متجهماً:

ـ لا.. نسيت: بطيخ مثلج مع فتحات داخله.

فجأة انفجر ضاحكاً، وغطى يدها بيده.

ـ سامحيني أنونا.. كنت أمازحك.

ابتسمت رغماً عنها، إذ لم تكن تنوي أن تلين أمامه، لكن كان هناك نوع من العدوى في مزاحه، لم تستطع مقاومته. وربما كان لنظرة المرأة الأخرى إليهما وأيديهما متشابكة تأثير عليها كذلك. وقال لها بلهجة مداعبة رقيقة:

ـ الآن فهمت لماذا...

فقاطعته لئلا يكمل ما لا تريد أن تتذكره.

ـ إنني أبدو بالجينز والقميص دون أناقة في حين أن الجميع هنا في أبهى حلة.

ضحكته جعلتها تنظر إليه برعب:

ـ أجل أنونا... لكن يجب أن تعرفي أنك حتى بهذه الملابس، وبشرك المشعث، تجعلين الرجال ينظرون إليك

مراراً وتكراراً. أتعلمين، عندما نزلت اليوم من غرفتك وأنت في هذا الزي ورمقتك زوجة عمي بطريقة غريبة، أدركت أن كل العناء الذي مررنا به يستحق التضحية... يا للخزي، امرأة من عائلة بيري إستاليا تظهر بهذا الزي.. وزوجة أليكسندر جوزف بيري إستاليا بالذات! سيمضي وقت طويل قبل أن تسامحك على هذه الوصمة التي ألحقتها بشرف العائلة!

ـ أنت تتكلم وكأنك تكره زوجة عمك.

ـ وهل يدهشك هذا... أتجدين أن من السهل أن يحبّها المرء؟

ـ لا.. لا أظنني التقيت بامرأة كريهة مثلها... لا أصدق أنها والدة أليكسي.

ـ حسناً أؤكد لك هذا، وربما لأنها على هذا النحو، أصبح ابنها على ما هو عليه الآن.

فصاحت به، دون أن تلاحظ نظرات الاهتمام من الطاولة المجاورة:

ـ كيف تجرؤ! لا أسمح لك بالكلام عنه! إنه أفضل وألطف..

وتوقفت يده في منتصف الطريق لايصال قطعة بطيخ الى فمه وابتسم:

ـ اصمتي يا فتاة! لست بحاجة لاقناعي بفضائله.. اقسم لك... اقسم أنني أحبه كما تحبينه أنت. وما قلته هو الحقيقة. لا أظنك تنكرين سلطتها عليه... والآن هيا، كلي البطيخ. لنكمل احتفالنا.

ـ لا تبالغ، بماذا نحتفل؟

ـ بزواجنا. فرغم كل شيء، نحن زوجان. . . مع أن أحداً لا ينظر إليك على أنك عروس الآن. تبدين كتلميذة تمضين اجازة على طريقة «الاوتو ستوب».

مال نحوها ليقول بصوت منخفض:

ـ أتظنين أن المرأة الجالسة على الطاولة المجاورة تحسبك كما قلت؟ وتظنني قد أخذتك في سيارتي محاولاً اغراءك. . .

ابتسم، حين رأى الاحمرار يزحف الى بشرتها، لكنها صمتت حين تقدم الساقي ليتناول أطباقهما ويضع غيرها. . فقال مبتسماً:

ـ لقد ألغيت طبق الحلزون، وأتمنى أن يعجبك هذا.

أدركت أنونا بعد قليل أنها لم تذق في حياتها مثل هذا السمك النهري الذي طهي بالزبدة وبقليل من نكهة الثوم. أما الوجبة التالية فتبين أنها لحم مشوي مع السلطة، فعلمت أن ادعاء جوزف بشأن طهو هذا المطعم لم يكن مبالغاً فيه.

ابتسم جوزف وهي تفرغ صحنها من آخر قطعة لحم:

ـ والآن. . . أتودين بعض الجبن؟

فتنهدت مرتدة الى الوراء:

ـ لا. كانت وجبة ممتازة، لن أستطيع تناول المزيد.

ارتفع حاجبه بتكذيب ساخر:

ـ لا؟ لكن يجب أن تتذوقي أحد أنواع حلوى هنري، سيحس بالاهانة إذا رفضتِ.

حاولت ألا يغريها قوله، فقد تذكرت كلام زميلتها لاورا

فروست عن وجوب محافظتها على وزنها. ومع ذلك فقد كانت مولعة بالحلوى، ولا مجال لإنكار أن طريقته في الاقناع جعلت الامر لا يقاوم.

ـ حسن جداً، سأفعل ما تقول وأجرب الحلوى.

ـ فتاة طيبة!

بينما كان يبتسم أشار الى الساقي فطلب فطيرة الحلوى لها. وراقبها مسروراً وهي تنظف صحنها وإذا بلسانها يمتد لتلعق آخر قطرة من الكريمة التي علقت في شفتيها.

بعدها مد يده ليحرك السكر في قهوته، وقال لها دون أن ينظر إليها:

ـ سنمضي ليلتنا هنا. . فأية حقيبة تودين أن أحضرها لك من السيارة؟

ـ الصغيرة، فيها حاجياتي الخاصة.

أهذا الصوت الطفولي صوتها؟. . . وقفا ليخرجا من المطعم، حين وصلا الى البهو قال:

ـ سأطلب من هنري أن يريك غرفتك.

وابتعد عنها، ثم سمعته يتحدث الى مالك الفندق، وبعد لحظات كانت تلحق بالرجل عبر سلم ضيق. رغم جيشان عواطفها، ارضتها الغرفة التي دخلتها، فقد كانت كبيرة واسعة، على نوافذها ستائر بيضاء يحركها نسيم الليل الدافىء.

وفتح هنري باباً ودلها على الحمام:

ـ غراتسي سنيور هنري.

وسرعان ما قرع الباب بعد فترة قصيرة من خروجه ليدخل

جوزف حاملاً حقيبتها وحقيبة صغيرة له. وضع الحقيبتين من يده، ثم تفحص الحمام، فجلست أنونا على حافة السرير، ثم أوقفت يدها عن التوجه الى ياقة قميصها، مما جعله يضحك.

ـ أيلائمك المكان؟

ـ طبعاً.

حاولت أن يكون كلامها عادياً، وكأنها معتادة على وجود رجل معها في غرفة النوم.

ـ «بياتي» إذن نامي جيداً بامبينو.

ـ هل... ستنام هنا؟

ـ أترغبين في هذا؟

ـ بالطبع لا.

وضع حقيبته من يده وعاد نحوها:

ـ لا؟ بالطبع لا. هذا أفضل يا عزيزتي. فأنا مصمم، عندما يعود أليكسي لاستعادة عروسه أن يجدها... كما كانت! هذا على الاقل.. ما يختص بي.

استدار ليمسك بحقيبته مجدداً. ثم أغلق الباب منهياً بذلك حديثه...

■ ■ ■

٣ ـ لمن يخفق قلبها؟

لم تعرف أنونا متى بدأت هذه المشاعر الرهيبة في نفسها تجاه جوزف. لا يمكن أن تكون منذ اليوم الاول، يوم نزلت من غرفتها فوجدته يجلس في المقهى يحتسي القهوة وهو مستغرق في قراءة الصحيفة أمامه... وقفت تنظر إليه لحظات، تراقب حاجبيه الكثيفين يقترنان بتركيز.

ربما تحركت فأثارت اهتمامه، أو ربما الحاسة السادسة نبهته الى وجودها. فحين أعادت النظر الى وجهه كانت عيناه عليها، وسرعان ما طوى الصحيفة، ووقف متقدماً ليستقبلها... كانت البذلة القاتمة التي يرتديها عكس بذلة الامس فهي بذلة فاتحة اللون من الكتان تحتها قميص له لون مماثل وربطة عنق قاتمة. أما شعره فكان رطباً وكأنه خرج لتوه من الحمام.

وضع يده على ذراعها، يجذبها الى الكرسي الخشبي، ثم انتظر حتى جلست فارتدّ على عقبيه عائداً الى مقعده قبالتها.

ـ نمت جيداً؟

ـ أيبدو عليّ هذا؟

ـ بالطبع لا... وأنا سعيد لأجلك.. أنت الآن دون شك تتوقين الى الفطور.

- ليس للفطور بقدر ما للقهوة.

- جيد.. أواثقة أنك لن تفضلي الشاي؟

- لا، فأنا أشرب القهوة صباحاً.. مع أنني لا أتوقع شرب القهوة الفورية هنا.

- أستطيع أن أعدك بهذا.

أشار الى الساقي بيده، وطلب منه القهوة وبدأت ماكنة كبرى باخراج البخار واصدار أصوات الهسهسة. بعد لحظات عاد الساقي فوضع المناديل الورقية على الطاولة وكوبين كالقصعة وسلة من الخبز الصغير الدائري المخبوز في مطبخ الفندق، وإبريق قهوة كبير يتصاعد منه البخار وإبريق آخر يحتوي الحليب.

قال لها جوزف:

- دون سكر أرجوك... في الكوب.

حين أنهت صب القهوة سألها:

- لم تشربي من قبل القهوة في هذا النوع من الاكواب؟

- أبداً.

وتابع يظهر لها كيف تشرب منها، وقلدته، لكنها كانت سريعة في رفع القصعة حتى أن السائل الساخن تسرب الى ذقنها، ثم الى قميصها. فسارع جوزف يقول:

- ستتعلمين.

لاحظت امتعاضه لأنها ما تزال في الجينز والقميص نفسيهما، ودفع إليها بسلة الخبز، ثم عاد الى صحيفته دون أن يتكلم.

بعد نصف ساعة كانا في السيارة التي سارت بهما عبر طرقات هادئة... بدا لعينيّ أنونا، أن إيطاليا كانت تخفي جمالها كله وأطلقته خصيصاً هذا اليوم.. كل كآبة اليومين المظلمين اختفت وحل مكانها سماء زرقاء ناعمة، تحمل غيمة أو غيمتين وكأنهما قطن أبيض مندوف، إلا أن الشمس كانت تسرع الى مطاردتها بأشعة قوّية.

لكن، حتى هذا كله لم يوضح لأنونا سبب الاحساس بأن كل ما حول الريف الذي يسيرون على طرقاته، مختلف.. فبينما كرهت كل المناظر التي شاهدتها حول القصر وأراضيه الواسعة، وجدت هذا المنظر ساحراً. كانت الطريق ضيقة ملتوية، تمر بقرى ساحرة، معلقة على سفوح الجبال، حيث كل ما حولها أخضر، مشرق، خفيف كالريش، وطازج، كأن أوراق الشجر قد تفجرت لتوها من براعمها... وهذا بالضبط ما قالته لجوزف بعد أن رفعت نظرها عن الملاحظات التي كانت تسجلها على دفتر مذكرات أخرجته من حقيبتها:

- إنها كأرض الخيال.. أليست هكذا؟ إنها شديدة الجمال.

- هذا ما أعتقده كذلك... يجب أن تريها في الشتاء.. حين ينتشر الثلج كثيفاً فوق الجبال وسقوف المنازل... حينما تنحني الاشجار من ثقل الثلج فوق أغصانها.. وحين ذلك فقط ستعرفين كيف تكون أرض الاحلام. هذه منطقة شهيرة بجمالها، إننا في أطراف سهل «لومبارديه» تحت أقدام جبال الالب؟

- لومبارديه؟.. حتى الاسم جميل.

- أجل. . أتعرفين التزلج أنونا؟

- أجل قليلاً. كنت أذهب الى الشمال لانزلج، وذهبنا مرة في رحلة الى النمسا. . للقيام برياضات الشتاء.

- أنتم. . .؟

- أنا وصديقتي آنا. . إنها الفتاة التي أشاركها السكن.

- قريباً سنقف ونشتري طعاماً نأكله في الريف. . . فلا داعي للعجلة اليوم.

عندما مرا بقرية صغيرة رائعة، توقف جوزف، وفك لها حزام الامان، وقال مبتسماً:

- والآن. . أريدك أن تذهبي وتشتري لنا بعض الخبز من ذلك المخبز. . ثم اذهبي الى تلك الملحمة عبر الشارع واشتري لنا بعض «النقانق» للغداء. وستجدين قرب الملحمة هناك دكان بقّال، يمكنك منه شراء الزبدة وبعض الجبن الطازج. . . أوه. . وأرى أن لديه كذلك بعض الخوخ الرائع. . سألحق بك مدعياً جهلي باللغة. وبعد ذلك سأخبرك عن مدى نجاحك.

- لكن. . لن أستطيع. . خاصة وأنت ستلحق بي لتسجل انتقاداتك. سأكون كتلميذة عادت الى المدرسة لتخضع لامتحان ما، امتحان أعرف أنني سأفشل فيه.

- حسن جداً. . لن ألحق بك. سأذهب الى محل البقالة وأجلب الزبدة والجبن والخوخ. تفضلي.

أخرج حافظة نقوده، ووضع حفنة كبيرة من الاوراق النقدية في يدها.

- احضري الخبز والنقانق. . وسأشتري الاشياء الأخرى. .

ستقابل هنا بعد عشر دقائق.

خلال دقائق قليلة كانت قد انهت مشترياتها، وعادت الى السيارة قبل وقت لا يذكر من عودة جوزف، الذي وصل محملاً بعدة أكياس من ورق وزجاجتين من المرطبات.

التفت إليها بعد أن جلسا في السيارة:

- كيف جرى الامر؟

- أوه. . دون مشكلة.

- دون مشكلة؟

- أبداً. . بالنسبة للخبز أشرت الى ما أريد رافعة أربع أصابع. . ففهمت البائعة ما أريد تماماً.

- والنقانق؟

- أوه. . في الملحمة. . كان شاب، طلبت منه «سوسيون» فسألني بالانكليزية «كم تريدين سنيورا»، ولم أجد سبباً لحرمانه من تجربة الحديث معي بالانكليزية.

ابتعدت بهما السيارة عن القرية الصغيرة، ثم انحرفت تصعد مرتفعاً وصلا في نهايته الى ما ظنته أنونا موقفاً للسيارات، ثم وجدت أنه منتزه تحيط به الاشجار، منتزه نظيف، فيه مقاعد وطاولات خشبية مثبتة في الارض، موضوعة كلها تحت أشجار زيزفون.

انزل جوزف السلة التي استخدمها في اليوم السابق، وغسل الكؤوس والصحون تحت مياه جارية تصب في بركة حجرية كبيرة، ثم شرع يحضر المائدة على إحدى الطاولات.

- هيا. . اجلسي.

قبل أن ينزل من السيارة أخرج من العلبة الصغيرة أمامها، نظارة شمسية فأخفى عنها بذلك تعابير عينيه، فقررت أن تحذو حذوه وغطت عينيها بنظارتها. وقالت بسعادة:

ـ هذا أفضل.. من كان يظن أن يحدث هذا التغيير في الطقس بعد يوم.. أمس؟

تلاشى صوتها وهي تتذكر أنها وفي مثل هذه اللحظات بالذات من يوم أمس، كانا يقفان يداً بيد عند مذبح الكنيسة، تظن أنها تتزوج من أليكسي. لكن، هو، فيمَ كان يفكر؟ فجأة أحست بأنها لا تريد تفسيراً. ليس الآن، ولا هنا. فمدت يدها بسرعة الى النقانق واللحم الذي اشتراه. وقالت بصوت مرتجف:

ـ أنا دهشة لعدم وجود أناس كثيرين هنا. ظننت أنه في مثل هذا الوقت من السنة...

ونظرت حولها الى بعض المتنزهين المنتشرين في المكان الواسع.

ـ صحيح.

وصب الشراب المرطب من إحدى الزجاجتين في كأسيهما، وأردف:

ـ لكن لو كان اليوم هو الاحد، لما تمكنت من إيجاد مكان تجلسين فيه. في نهايات الاسبوع، يتوجه سكان المدن المجاورة الى الريف فيضج عند ذلك ويزدحم بالاولاد والناس والكلاب والدراجات.

دفع الزبدة نحوها مع سكين:

ـ ابدأي العمل أرجوك... وضعي لي الزبدة في الخبز.

ـ طبعاً..

أحست أنونا باصابعها تفقد براعتها وهو ينظر إليها، فلا الخبز انقسم ولا الزبدة امتدت.. لا بد أن جوزف شاهدها فسارع لأخذ السكين منها ليتابع بنفسه تحضير الطعام. وأخذت أنونا ترتشف شرابها وهي تفكر بحزن في ما إذا كان يذكر الامس، حيث أطعمها كسرات الخبز و«الباتيه» في السيارة. أشاحت بصرها عنه الى الوادي، الى ألوان قمم الاشجار المتغيرة التي يتلاعب بها الهواء.. ودون أن تعي ما تفعل مدت يدها فتناولت قطعة خبز، لاحظت بعدها إنها كانت جائعة.

بعد أن انهيا الطعام مدت يديها المرتعشتين لتتخلص مما تبقى من أثر الاكل وتضعها في الاكياس الورقية. فقال لها بلهجة لا تقبل الرفض:

ـ اتركي هذا الآن.. أليس لديك أسئلة تطرحينها عليّ أنونا؟

نظرت إليه تهز رأسها نفياً.. وأطرقت.. ثم أحست بالانزعاج وهي تسمعه يضحك ضحكة عميقة، جعلتها تحمر خجلاً، ولم تلبث أن رفعت نظرها إليه صائحة:

ـ كيف تجرؤ على الضحك! وأنت من زجني في هذا الموقف الرهيب!

بدا أن في كل نبرة من نبرات صوته خطر ما وهو يرد:

ـ أنا من زجك في هذا الموقف؟ أنا وحدي؟ ألم يكن هناك انسان آخر قد توجهين له لوماً بسيطاً!

سرعان ما هبت للدفاع:

ـ أتعني أليكسي؟ لا بد أن هناك تفسيراً ما... إذ يستحيل أن يقبل بأن أمر بهذه المعاناة.

ـ أما أنا فاقبل. أهذا ما تعنين «كارا»؟

ـ لا تناديني هكذا! فالكلمة غير صادقة.. خاصة وأنت تعلم أننا في الامس في مثل هذا الوقت ما كنا نعرف بعضنا بعضاً!

ارتفع حاجباه حتى التصقا ببعضهما بعبوس:

ـ لكنك الآن زوجتي أنونا. ومهما كان ظنك، هذا الوضع يتطلب تضحية كبرى مني... يجب أقدمك الى أصدقائي، على أنك زوجتي ثم بعد ذلك عليّ أن أدعي أمامهم أنك فضلت ابن عمي الاصغر أليكسي. وهذا ما لن يسرني أنونا.

ورمى عقب سيكاره الرفيع الى الارض وداسه بوحشية، ثم وقف... بقيت أنونا جالسة تنظر إليه، فشناعة الموقف ترسبت ببطء في ذهنها للمرة الأولى. لقد كانت منغمسة ببؤسها الخاص وصدمتها فلم تفكر لحظة في مشكلته. قالت:

ـ أنا... أنا... لكن... لماذا؟

خرجت الكلمات منها نحيباً، وساد الصمت... لكنه ردد تساؤلها بالحيرة التي بدت عليها:

ـ لماذا يا أنونا؟ لماذا حقاً؟ سألت نفسي هذا السؤال مراراً منذ الامس. كل ما أستطيع قوله أنني من أجل أليكسي قد أفعل أي شيء وقد وجدت أن عليّ أن أصحح أخطاءه.. كان مستاءاً جداً، ومقنعاً وهو يتحدث إليّ على الهاتف.

وهمست:

ـ لكن... لماذا؟

ـ لماذا؟ لأنه لا يستطيع الوقوف في وجه أمه.. لقد سيطرت عليه طوال حياته... وقبل ذلك سيطرت على حياة ابنه وأخته من أبيه. أترين أنونا، إن القصة تعود الى زمن بعيد. كان والدي ووالد أليكسي توأمين متماثلين، لكن أبي كان أصغر بنصف ساعة... تربيا دون أن ينفصلا تقريباً.. وقد تزوجا من ابنتي عمهما الشقيقتين وهما أمي، وأم جينا. لكن أمي توفيت عندما كنت في الثالثة من عمري، ثم توفيت خالتي ليزا وأنا في الثامنة. في تلك الايام كانت العائلتان تعيشان معاً في القصر، وهما متفقتان على أن الاملاك ستقسم بين التوأمين بالتساوي. لكن عندما تزوج عمي ثانية، تغير كل شيء. رغم صغر سني ولذلك عرفت أن توتراً رهيباً ساد المنزل، ثم ظهر محامي العائلة فأمضى وقتاً طويلاً معنا. وأدركت أن لهذا علاقة بابن العم الصغير الذي ولد... لكنني لم أفهم السبب.

بالطبع بعد ذلك فهمت، فهمت أن زوجة عمي الثانية كانت طموحة بشأن ولدها، فأبدت رغبتها في حرماني. ولو لم يمت والدي فجأة إثر نوبة قلبية لاختلفت الامور.. لكن...

وهز كتفيه، دليل عدم الاكتراث، وأصبح وجهها قاسياً خالياً من المشاعر:

ـ الذي حصل أن الساحة أصبحت خالية لما تريد من خطط شاءت تنفيذها.. وبالطبع لم تكن تلك الخطط تشملني. لكن عندما بلغت الحادية والعشرين، علمت أن ما ظننته إرثي..

ليس إرثي تماماً بل إرث أليكس. ومات عمي في السنة التالية، ومع أنه كان يعاملني بلطف، إلا أنه ترك نفسه ألعوبة بين يدي زوجته المتسلطة، كما جعل ابنته وكل ما في المنزل تحت سيطرتها.

نظرت إليه عاجزة:

ـ آسفة جوزف.. لكن ألم تمتعض من الامر؟ أعني من أن يكون أليكسي...

فابتسم بمرارة:

ـ أعتدت على هذا... فأنا لا ألومه.. في الواقع أحببته دائماً.. كان الأخ الأصغر الذي لم ينجبه والدي.. لا لم يكن له يد في ما حدث، بل على أمه يقع الوزر، وهي كما تعلمين امرأة متسلطة لم يستطع أن يقف في وجهها.

ـ وهكذا أجبرت على ترك منزل عائلتك القديم...

ـ لم أكن مجبراً... بل قالت السيدة زوجة عمي بكل لطف إنني أستطيع الحصول على وظيفة في الاملاك. وبكلمات أخرى، دعتني الى الاستمرار في ادارة أعمالهم. لكنْ على أساس أنني مدير فقط.. رفضت طبعاً، وأبقيت نفسي بعيداً عنها وعن سلطتها منذ ذلك الوقت، رافضاً كل أغصان الزيتون التي رفعتها. لقد أحسست بالحرية منذ هربت من نفوذ القصر المفترض.

ـ حتى الآن...

ـ نعم، كما تقولين.

بدا للحظات غير راغب في قول المزيد.. فسألت:

ـ لكنني مازلت لا أفهم.

ـ أوه.. سامحيني، فتفكيري غرق في أشياء قديمة. سمعت منك للمرة الأولى يا عزيزتي، عندما اتصل بي أليكسي يخبرني من التقائه بك وعن رغبته في الزواج منك شاءت أمه أم أبت، يومها شدّني قراره هذا لأنه أخيراً استطاع الوقوف على قدميه فشجعته على المضي في الامر. ثم بعد بضعة أيام، تلقيت منه رسالة يقول فيها إن أمه تضغط عليه، فعلمت عندها أن عزيمته بدأت تهن، لكنني أعتقدت أنه ربما كانت أمه على حق. ومع ذلك نصحته في المضي قدماً في خطته الاصلية، لأنني كنت أؤمن دائماً أن زواجه سيكون وسيلة ليتحرر من أمه وتأثيرها... ولست أدري ما قد يكون الامر بالنسبة لك أنونا.. فأنا أظن أن عليك الوقوف على قدميك وحدك!

وضحك في وجهها ضحكة ساحرة.. وكانت فكرته قد صدمتها فاقشعر جسدها وارتجف:

ـ ثم بعد فترة اتصلت بي أمه... وذكرتني بأنني وعدت عمي برعاية أليكسي، وقالت إن وقت تنفيذ الوعد قد أزف...

نظر إليها فلاحظ الشحوب على وجهها، ومع ذلك أكمل قصته:

ـ كنت مؤدباً معها.. لذلك ظنت أنني نسيت وسامحت. وعندما اصغيت الى روايتها ضحكت قبل أن أسألها «ماذا تريدينني أن أفعل؟»... وقلت، بالتأكيد لا تتوقعي مني أن أتزوج الفتاة، فساد بيننا صمت طويل، عرفت خلاله أنها فعلاً تريد مني تنفيذ تلك الفكرة المجنونة.. ثم بعد أن فكرت في

الأمر ملياً، رأيت ما وراء حديثها. ثم فكرت في أنني إن أطعتها زالت مخاوفها، لكنني نويت أن أقدّمك لأليكسي حينما يأتي.

أحست بصلابة وجفاف في شفتيها، حتى أجبرت الكلمات على الخروج من بينهما:

ـ لكن... ماذا طلبت منها بالمقابل؟ لا أحسبك ترضى بفعل هذا ارضاء لها فحسب.

ـ آه.. لا.. فلنقل إنني قلت إنني موافق على المضي في لعبتها لاعتبارات أخرى.

ـ ولم يبدر لكليكما... أوه... أوه... لست ألومك حقاً.. لكن من المفترض أن يكون أليكسي يحبني. فكيف قبل بهذا؟

مد يده عبر الطاولة ليمسك ذقنها ويرفع رأسها لئلا تشيح نظرها عنه:

ـ «كارا» إنه يحبك. ولا أستطيع التفكير في أنه خاطر من أجل شيء كما خاطر من أجلك. وتأكدي أنه عندما يحين الوقت سيأتيني طالباً مني زوجته.

لامست بسمة رقيقة شفتيه، لم ترَ مثلها منذ أن بدأ شرحه هذا:

ـ عندها سيكون أمامكما الحياة كلها، وهذه الفترة ستكون تجربة تخبرين أطفالك عنها.

ثم هبّ واقفاً متقدماً إليها، وجذبها على قدميها:

ـ والآن يجب أن نعود. قلت إنك ترغبين في تغيير ملابسك.. إذا وجدت شيئاً في حقيبتك، فسأساعدك على

تنظيف المكان حتى تنهي تبديل ملابسك.

انحنى داخل السيارة، بعد أن غيرت ملابسها وسأل:

ـ جاهزة.

فردت بهدوء:

ـ أجل.

والتقت عيونهما قبل أن يغلق بابه، وعلمت أنه يفكر في ما شاهده منها وهي تغير ملابسها. النظرة في عينيه أخجلتها، فهي تعرف الكثير عن الرجال ولن تخطىء الرغبة التي أطلت منهما.

لكن، من وجهة نظرها، ما كان أكثر ازعاجاً لها هو ردة فعلها.. فقد تاقت الى أن تشعر بذراعيه حولها، في عناق بعيد كل البعد عن العناق العابر، الذي جرى في الكنيسة بالامس... أرادت عناقاً أكثر حرارة وعاطفة... عناقاً تعرف تماماً أنه سيشعل النار في دمها، كما أشعله أليكسي من قبل.

وأحست بوضعها الغريب هذا، إنها متزوجة وغير متزوجة في آن. لكنها أملت... وكم أملت.. في ألا يؤخر الرجل الذي تحبه لقاءهما طويلاً.

■ ■ ■

٤ ـ الرجل الظل

طوال بعد الظهر قاد جوزف السيارة بسرعة بطيئة نسبياً. راح خلالها يتحدث ممازحاً، راوياً عليها قصة «عش الحمام» الذي اشتراه عندما ترك القصر إثر خلافه مع زوجة عمه. كما روى عليها كيف عمل جاهداً ليحوله الى كوخ سكني أصبح الآن منزلاً ريفياً فيه ما يكفي من أسباب الراحة الحديثة.

ـ متى كان هذا يا جوزف؟

ـ منذ عشرة... لا بل إحدى عشرة سنة. أتعلمين أن الامور صعبة عندما تجدين نفسك فجأة مشردة ولا مال معك. وكان عليّ أن أعمل.. لأجد ما أعيل به نفسي.

ـ وبماذا عملت؟

ـ بينما كنت أفتح حقائبي لأخرج منها أشيائي، اكتشفت «كاميرا» قديمة.. فقررت أنني ربما، أتمكن من التقاط صور عائلية وما يشابهها لابعد ذئب الجوع عن داري.

ـ وهل نجحت؟

ـ في ماذا.. في التصوير أم في إبعاد الذئب؟

ـ في الامرين معاً.

فضحك.

ـ أجل.. أعتقد أنني نجحت.

ـ وكسبتَ ما يكفي لاصلاح «عش الحمام».

ـ أجل... ربما تسمحين لي بأن التقط لك الصور... فقد تكون هذه الفرصة نقطة تحول في حياتي المهنية!

أعلمتها نبرة صوته أنه ليس جاداً تماماً، وإنه إنما يجرب رد فعلها.. كانت تفكر في ما سترد حين وجّه السيارة الى طريق ضيقة في الوادي، ثم سار في طريق أخرى أكثر وعورة، لكنها أجمل بقناطرها الرائعة الجمال من شجر الزيزفون. ثم لمّا وصلا الى فسحة بين الاشجار، مد اصبعه الطويل الاسمر وقال:

ـ انظري.. ها هو «برج الحمام» بيتنا.

لاحظت أنونا برجاً صغيراً مربعاً يطل من فوق تلة ظهر عليها قليلاً قبل أن يبتلعهما ثانية نفق الاشجار... قالت له:

ـ تبدو مرتاحاً لأنك ستكون في بيتك.

واحمرّت وجنتاها، فحدقت أمامها عبر زجاج السيارة، فقال:

ـ صحيح.

ولم يزد، لكن أنونا أحست بالتوتر يزول من نفسه أثناء سيرهما عبر الاشجار، ولم يلبث أن انعطف بالسيارة يميناً في طريق عريضة مرصوفة، تعلو مدخلها قنطرة تقع فوق جدار حجري. ثم توقف أخيراً في فناء أمام المنزل.

أدركت أنونا فجأة أن ما لمحته كان خادعاً فذلك البرج المربع المحدود الذي شاهدته من بعيد فوق التل، لم يكشف حجم أو جمال المبنى وأناقته.

كانت أحجار البناء القديم، التي تفرعت منها أشياء أخرى، ذات اللون العسلي القاتم، ناعمة دافئة حتى تحسب أنها في أشد الايام عبوساً وظلاماً ستقنع أي انسان بأن هناك شمساً تشرق عليها من مكان ما. ترجّلت أنونا، تنظر الى ما حولها دون أن تخفي سعادتها.

ـ أهذا ما تسميه «عش حمام»؟

ـ أجل. . وها هي هناك أنونا.

وقبل أن ترد، سمعت هديل الحمام فانجذبت عيناها الى البرج المربع حيث تقف بضع حمامات سمينات يفردن أجنحتهن ويتمطين بكسل. طارت إحداهن فحطّت على الحجارة تحت أقدامهما، تفتح ذنبها الجميل وهي تلتقط ما تظنه طعاماً بين الحجارة.

وتقدمت أنونا كالمسحورة الى جانب الفناء المفتوح:

ـ أليست جميلة؟ كل شيء جميل.

ونظرت الى الوادي بعيداً، فشاهدت الحقول الغنية، وتدفق مياه النهر وهي تظهر وتختفي عبر الوادي.

ـ ذلك فرع من نهر «ألونا» الذي ينضم في النهاية الى «أديج» في مكان ليس ببعيد عن هنا. والآن، فلندخل. أريدك أن تقابلي باميلا.

وأمسك ذراعها بشيء من التوتر ثم قادها الى الداخل فسألته:

ـ باميلا؟

ـ أجل، إنها تعيش وزوجها في الشقة فوق الكراج. . بيدرو

يسافر الى بلدة بريشا كل يوم ليعمل في كاراج لتصليح السيارات، ويعتني بالحديقة في أوقات فراغه. أما باميلا فتعنى بالمنزل وتطبخ.

تقدم بها ليرتقيا درجاً صغيراً عريضاً يؤدي الى الباب الامامي، الموجود في زاوية. عبر زجاج الماهوغوني اللماع شاهدت أنونا خزائن أدراج ثقيلة، قديمة الطراز موضوعة قرب جدران حجرية بيضاء اللون مع العديد من قطع النحاس الاصفر والاحمر اللامع تحت أشعة الشمس.

حين كان يفتح الباب، رن الجرس، ثم دفع أنونا أمامه فكان لها لحظات تعجبت خلالها من مرأى الردهة النظيفة ذات الطراز البسيط، ومن مرأى الدرج البسيط الارتفاع المصنوع من الخشب القاتم اللماع الذي يتفرع تحت نافذة نحو اليسار واليمين.

ـ باميلا. . . ؟

بينما كان ينادي باميلا، ويسير نحو الباب المغلق الى يسار الردهة، انفتح الباب وخرجت منه امرأة. كانت أصغر سناً مما توقعت أنونا. في حوالي الخامسة والثلاثين، صغيرة الجسم، ممتلئة الوجنتين، شقراء، شعرها مضموم عند مؤخرة رأسها.

ـ سنيور جوزف!

أضيء وجهها عندما رأته، ثم ترددت عندما رأت أنونا، وبدأت تنظف يدها بميدعتها البيضاء الكبيرة.

ـ هذه باميلا. . . وهذه زوجتي.

علت وجه المرأة تقطيبة ارتباك لحظات ثم راحت تنقل

بصرها بينهما:

- زوجتك سنيور؟

أعلمتها لهجة الاستفسار أنها لم تفهم تماماً، فأحست أنونا بحرارة الحرج، فضحك جوزف ولف ذراعه على كتفيها:

- أجل باميلا... أعلم أنها مفاجأة لك. لكنها زوجتي أنونا.. تزوجنا بالامس.

رفعت المرأة يدها الى فمها:

- لكن سنيور، إنها صدمة!

ثم ابتسمت ومدت يدها الى الوافدة الجديدة.

- لكنها صدمة لذيذة.. سنيور.. سنيورا.

وسرعان ما بدت عليها الغبطة، فشدت على يد أنونا بيدها الدافئة والمطمئنة.

قال جوزف:

- أجل باميلا.. والآن تعرفين قيمة اقامتك مع السيدة بنغولد في لندن منذ سنوات. فقد تعلمت هناك الانكليزية وبذلك سهلت الامور على زوجتي التي وجدتها.

فابتسمت باميلا، وقد بدا أنها معتادة على مزاحه.

- أوه سنيور.. لكنك وجدتها بسرعة.. وبطريقة رومانسية سنيورا.

أحست أنونا باسترخاء في داخلها جعلها تدرك مدى التوتر الذي كانت عليه:

- شكراً لك.

- والآن باميلا، رافقي السنيورا الى غرفة النوم غرفة

الحديقة، وسأحضر حقائبها.

- بكل تأكيد سنيور.. سنيورا تفضلي معي.

خلعت مبدعتها فوراً فوضعتها على كرسي ثم أشارت الى أنونا لتلحق بها. حاولت أنونا إخفاء ارتباكها بابداء ملاحظات عرضية:

- إنه منزل جميل.. عندما تكلم جوزف عن «برج الحمام» لم يكن لدى فكرة أنه كبير وأنيق هكذا.

- أوه.. سنيور بيري إستاليا.. إنه دائماً يمزح... ألم تلاحظي هذا سنيورا؟

- أجل..

- ها قد وصلنا سنيورا.

وفتحت باباً عندما شاهدت أنونا ما بداخله فهمت سبب افتخار هذه المرأة بهذا المنزل...

كانت الغرفة كبيرة، لها نافذتان مرتفعتان تعلوهما قنطرتان تضفيان النور والهواء. أحد الجدران كان مليئاً بخزائن خشبية مذهبة.. وكان يحتل الغرفة كلها في الواقع سرير ذو أربع قوائم رفيعة.. أحست أنونا أن باميلا تنظر الى وجهها راضية تنتظر منها تعليق:

- لم أشاهد مثل هذه الغرفة الجميلة بعد يا باميلا.

- سي سنيورا.. لقد أعدت منذ فترة وجيزة. إن السنيور جوزف دون شك كان يعرف، مع إنه لم يقل لي شيئاً.. تركني أعتقد...

ولم تكمل، بل تقدمت الى باب لم تلاحظه أنونا قبلاً

وفتحته:

- وهنا سنيورا.. هو حمامك.

فابتسمت أنونا:

- أتعلمين باميلا.. قال السنيور جوزف إن لديه اسلوباً غريباً في تأثيث عش الحمام هذا...

- عفواً سنيورا؟

يبدو إنها لم تفهم، ولم تُتح لها فرصة الفهم لأن جوزف دخل الغرفة:

- إنها غرفة جميلة جوزف.. رائعة تماماً.

صارحته للمرة الأولى بما في قلبها.

- أنا سعيد لهذا.

لكنها علمت أنه سعيد أكثر بحماستها، ونظرت باميلا إليهما بطرف عينيها مظهرة التفهم.

- اكسوزا سنيورا، أتودين بعض الشاي؟

- فكرة الشاي رائعة، لم أذق الشاي منذ...

صمتت وهي تتذكر أن ذلك كان في القصر ليلة وصولها، فقالت المرأة:

- إذن سأذهب وأعده لك... سيجهز بعد ربع ساعة...

- أوه.. باميلا..

أكمل جوزف حديثه معها بالايطالية، ففهمت أنونا منه إنه يتعلق بوجبة المساء... لكنها لما سمعت كلمة تفيد معنى مطعم افترضت أنه ينوي تناول العشاء فيه. لكن يبدو أن باميلا جن جنونها وتدفقت منها كلمات سريعة لم تفهم منها أنونا إلا

آخر الكلمات:

- بحق الله سنيور.. هذا المساء ستتعشيان هنا.. في منزلكما.

بعد أن أقفلت باميلا الباب وراءها بهدوء، ساد صمت قصير. سار جوزف نحو النافذة وأزاح الستارة:

- شاهدت المناظر من هنا؟

- لا.. سمعتك تسميها غرفة الحديقة، لكنني لم أشاهد حديقة.

- إنها الى جانب المنزل.

تقدمت لتقف الى جانبه بتردد لم تفهم سببه:

- أجل.. المنظر جميل.

تطلعت الى الورود الممتدة فوق العريشة، والى النباتات المرتفعة فوق الجدران والى الازهار البيضاء والزهرية... لكنها كانت لا ترى شيئاً، لاضطرابها من الوقوف قربه. ثم أن تحديقه في جانب وجهها، بعث الدم حاراً في وجنتيها. بحثت يائسة عن أي شيء يلهيه عنها، فمالت الى النافذة، فإذا بالامر أصبح أكثر احراجاً لها.

- أوه.. لديك بركة سباحة.

- أجل.. سأنتظرك في الردهة، لنكمل جولتنا على سائر أرجاء المنزل.

- أوه.. أجل.. شكراً لك... سألحق بك في بضع دقائق... سأرتب شعري فقط.

نظرت أنونا الى الباب الذي أقفله جوزف خلفه، فحاولت

أن تبحث عن تفسير منطقي لتأثير هذا الرجل عليها. لا يعقل أن يكون هذا التأثير انجذاباً فقط. ففي عالم عرض الازياء تمكنت على الدوام من التعاطي مع مثل هذه المشاعر ولم يحدث أن وجدت نفسها قط في موقف خطر كهذا. إنها لا تثق بجوزف بيري إستاليا، لكن ثقتها بنفسها باتت أقل بكثير. ليلة أمس صممت على أن تقوم بشيء ما بهذا الخصوص، والآن حانت لحظة البداية.

بعد خمس دقائق وجدت طريقها الى الردهة حيث وجدته ينتظرها. كانت غرفة الجلوس عصرية الطراز... جزء منها، كما هو واضح، يستخدمه جوزف للعمل ففيه طاولة كبيرة عليها بعض أدوات التصوير.

لكن الطرف الآخر من الغرفة ما جذب اهتمامها. ففيه باب زجاجي مرتفع فوقه قنطرة تحتل الجدار كله، ينبعث منها النور ليس فقط لغرفة الجلوس بل للغرفة الأخرى، المعلقة فوقها. كان درج صغير ضيق يقود الى هذه الغرفة المعلقة، يحيط الدرج درابزين حسن الصناعة. التفتت أنونا مذهولة بهذه الهندسة الغريبة تهز رأسها، فابتسم جوزف وقالت:

ـ إنها... مذهلة!

ـ أيعني هذا إنها جيدة أم سيئة؟

ـ جيدة طبعاً.. لا أفهم كيف نفذتها؟

ـ كان هذا المنزل مخزن غلال عندما اشتريته.. أتتصورين هذا؟ كان مليئاً بالتبن وأرضه ترابية. وفوق سقيفة خشبية عليها رافعة قديمة الطراز. وفيه فتحة، تحتها باب ضخم تدخل منه

العربات التي تجرها الخيول. عندما سكنته، وضعت سريري فوق.. بعدها قررت أن تبقى غرفة نومي هنا... فوق.

ـ فوق... هناك؟

ـ أجل.. هيا نصعد لتريها.

لحقت به على مضض لتراه يقف أمام النافذة المتصلة بالاسفل.

ـ لا أطيق فراق هذا المنظر.

حين انضمت إليه، فهمت ما يقصد. من هذه النافذة أشرفا على الارض المنبسطة تحت قرب بركة السباحة. ومن بعيد بدا النهر لماعاً تحت أشعة الشمس.. حبست أنونا أنفاسها قبل أن تطلقها بتنهيدة رضى:

ـ أستطيع فهم السبب.. و.. تعجبني غرفة نومك. مع إنها ليست عادية، بطريقة ما. ألا تجدها مكشوفة كثيراً خلال الشتاء؟

ـ لا.. أبداً.

وحتى يثبت قوله دنا من النافذة فضغط زراً، وإذا بستائر سميكة تمتد من السقف الى الارض تنسدل، ثم بكبسة زر أخرى انسدلت ستائر أخرى فأقفلت الجهة المشرفة على غرفة الجلوس، في لحظات أصبحا معزولين عن كل شيء داخل غرفة نومه.

ظهر على وجه أنونا تعبير حميم وهي تنقل نظرها منه الى السرير الضيق، والى الباب المفتوح جزئياً الذي ظهر منه حمامه الخاص. ونظر إليها يتأملها عن كثب وقال:

- بذلك ترين.. إن المكان أصبح معزولاً وخاصاً أونا.. هنا يمكنك الاحساس بأنك بعيدة عن العالم.. ألا توافقين... كارا؟

- أجل... أجل بكل تأكيد.

وجدت راحتها عندما رأت رسمتين رسمتا بقلم رصاصي، كانتا معلقتين قرب الدرج. وهما رسمان لامرأة واحدة، في الصورة الأولى بدا شعرها منسدلاً وفي الأخرى كأنها حُشرت في زاوية. كان الوجه جميلاً لكن لمعان العينين سلب من الوجه شخصيته. في الزاوية رأت أونا الاحرف الأولى من اسم الرسام ج.د.ن.

- أهو صديق لك؟

- أجل.

كان رده مختصراً الى درجة دفعتها الى الالتفات لتنظر إليه... ثم سمعت صوت جرس يرن من الاسفل فاستراحت من الجو المتوتر. عندما ضغط جوزف الزر ارتدت الستائر عائدة الى ما كانت عليه قبل انسدالها. وسمعا صوت باميلا ينادي بهدوء:

- الشاي سنيورا.

ثم طفقت تراقب أونا وهي تتقدم وحمرة الخجل تعلو وجهها، الى الرواق ومنه الى غرفة الجلوس عبر الدرج. جلست على إحدى الارائك الجلدية الكبيرة وشغلت نفسها في صب الشاي:

- آسفة.. يجب أن أعرف، لكن، أتحب السكر والحليب

مع الشاي؟

- وكيف لك أن تعرفي.. فكما قلت... بالامس لم نكن قد تقابلنا بعد. قليل من الحليب، دون سكر.

دون أن تتكلم أعطته الفنجان ثم مدت طبق السندويشات إليه، واحست بالراحة عندما أخذ عدداً منها ووضعها في صحنه. لكن عندما رفض قطعة الكاتو التي صنعتها لهما باميلا، وجدت أن عليها أن تناقشه:

- يجب أن تأخذها.. لئلا تصاب باميلا بخيبة أمل.

دفعت القطعة الى صحنه ثم أعطته الشوكة الفضية. فأخذها مطيعاً:

- تغضب؟ أشك في هذا... فهي تعرف ذوقي جيداً ولا تتوقع مني أن آكل الكثير من الحلوى. لكن إذا كنت مصرّة.. سأحاول تناولها. وأرجو أن تصبي لي فنجان شاي آخر لأرتشفه معها.

راقبها وهي تصب له الفنجان بعينين ضيقتين للحظات ثم قال:

- أنا سعيد لأنك تحبين الطعام أونا، فأنت ستتزوجين إيطالياً.

ردت وهي تلعق الكريما العالقة في ملعقتها:

- شخص ما قال لي إن علي أن أخفض بعضاً من وزني.

- أوه؟

- صحيح.. شخص، أعمل معه.

- لست بحاجة.. للنحافة أكثر.

وضعت صحنها قرب فنجانها وصحنه، ووقفت، ثم أخذت تتجول في الغرفة تنظر الى الصور المعلقة على الجدار، كانت معظمها رسمات حديثة، براقة الألوان تعطي انطباعاً بالنور. وكانت كلها ضمن اطارات نحاسية تناسب الطراز الانطباعي. لفت نظرها مجموعة من الصور الفوتوغرافية، المرتبة داخل اطار على جدار الغرفة حيث طاولة العمل. فالتفتت إليه:

ـ أتسمح بأن أتأملها.

ـ بالطبع.

ووقف ليقترب منها ويضغط زراً جعل الحائط كله يشع بالنور.. راحت أنونا تسير على مهل تستعرض الصور بذهول وقد تعرفت على عارضة أمريكية شهيرة.

ـ إنها مارلين شيلدز.. أليس كذلك؟

حين لم تسمع رده، التفتت إليه وأعادت السؤال، فأجاب بالايجاب. فراحت تتأمل الصور بتعجب تلاحظ براعة التصوير، ورقة الاسلوب، والخطوط، والطريقة التي يتوجه فيها النور على شعر الفتاة ووجهها.. بعد ذلك نظرت الى الزاوية وقرأت التوقيع: «جوزف دو نيللي» فتلفظت الاسم بعجب واعجاب، ونظرت الى ناحية الرجل الصامت الواقف خلفها:

ـ يا إلهي، إنها صور لجوزف دو نيللي! أكنت تعرف هذا؟

ولم يرد، فتابعت تفحص صف الصور.

ـ أليست صوراً رائعة؟ أوليست صوراً...

صمتت عندما شاهدت صورة أخرى.. صورة وحيدة في اطار، راحت تمعن النظر فيها فإذا فيها رجل يجلس على كرسيه

ضاحكاً، وفتاة منحنية فوق الطاولة تلامس خده بأناملها الطويلة الانيقة. أما الفتاة فهي أشهر عارضة تصوير في أميركا... جعلتها هذه المعرفة تقشعر قشعريرة سرت في عمودها الفقري ببطء.. التفتت إليه... ثم قالت بصوت محبط خفيض:

ـ كان يجب أن تخبرني.

ـ عم أخبركِ حبيبتي؟

أحست برغبة في أن تلذعه سخريتها:

ـ أوه.. لا شيء، قل لي على الاقل إنك تعرف كيف تلتقط الصور..

ثم ارتفع صوتها:

ـ .. لماذا لم تقل إنك جوزف دو نيللي؟ أحسبتني أزعجك في طلب عمل؟

طال رده، فانتظرت أنونا مرتجفة بسبب المشاعر التي بدت إنها قد وترت الجو بينهما... ثم قال:

ـ لا.. هذه فكرة لم تخطر لي على بال قط. أعتقد أن علينا أن نتعارف ببطء وروية. مثلاً: ثمة أشياء لم تخبريني عنها شيئاً بعد كسفرك الجنوني الى بلد غريب عنك لا تفهمين لغته، لتتزوجي رجلاً لا تعرفينه. أين تفكيرك السوي الذي كان عليه أن يجعلك تصطحبين صديقاً معك؟ ألا تهتم بك عائلتك أبداً؟

لمعت العينان البنفسجيتان بغضب مفاجىء:

ـ كيف تجرؤ على مخاطبتي هكذا؟ كيف تجرؤ، وأنت... أنت شاركت في خدعة، تُعَدّ حتى في هذا البلد مخالفة قانونية! وكيف سيكون موقفك سيد دو نيللي.. أو سيد بيري

إستاليا... لو قررت أن أذهب الى الشرطة وأخبرهم عن خديعة الامس؟ أعتقد انك وزوجة عمك، ستزجان في السجن!

ـ لكنك لن تذهبي الى الشرطة.. أليس كذلك أنونا؟

وتقدم منها غاضباً فأمسك بيدها وجرها نحوه.. ثم أكمل:

ـ لو كنت تنوين، لفعلت هذا عندما توقفنا في تلك البلدة لشراء الطعام. لقد مررت بشرطي. لا تقولي إنك لم تنتبهي له، فلقد تبادلتما الابتسام.

ـ أنا لم ابتسم له! لكن عندما أحنى رأسه...

ـ طبعاً، كان عليك الرد..

ـ اترك ذراعي.. أنت تؤلمني!

فجأة، ورغم تركه يدها، وجدت نفسها في عناق حميم، ملؤه الحنان، تسللت فيه يداه من خصرها، الى ظهرها لتشد جسدها الى جسده. فارتفعت عيناها بحيرة:

ـ لا تقلقي أنونا... لا أقصد شيئاً شخصياً من هذا. لكنني سمعت باميلا قادمة.. و...

في اللحظة التي سمحت لنفسها بأن تنجرف وراء تعويذة فتنته أبعدها عن ذراعه:

ـ عفواً سنيورا... سنيور جوزف.

قبل أن تخرج باميلا من الغرفة حاملة صينية الشاي، ابتسمت ابتسامة لم تظهر فيها أثراً للحرج بل للتفهم. فجأة أحست أنونا الدموع تحرق عينيها، لكنها علمت أنها إذا لم تهرب فثمة خطر قد يؤدي الى السماح بأن يلاحظ مشاعرها.. هبت بسرعة عن الطاولة التي اتكأت عليها وركضت نحو

الباب.. ثم توقفت ويدها على المقبض:

ـ تباً لك! تباً لك!

وتصاعد البكاء الى حنجرتها دون أن تستطيع السيطرة عليه.. جوزف دو نيللي.. كان يجب أن تعرف.. في البداية الكسي، والآن جوزف، لقد رأت دائماً هذه القسمات في مجلات الازياء.

جوزف دو نيللي.. اسم طالما ذكر مع اسماء مشاهير عالم الازياء، صاحبه شوهد دوماً برفقة الجميلات... إذن ماذا تفعل هي الآن معه؟ ضغطت على أسنانها علّ الالم يمحي التفكير به.

لكنه لم يفعل.. ورسخ في فكرها صورة عنه وعن مارلين شيلدز تعذبها، مارلين شيلدز التي اقترن اسمها كثيراً باسمه.. ولم تستطع أنونا انكار أن ماتحس به هو الغيرة.

الامر سخيف.. طبعاً.. لكن خطير!

لقد شاهدت تلك النظرة في عينيه، وعرفت استجابة مشاعرها معه... وكلما أسرعت للقيام بشيء حيال الامرين معاً، كلما كان هذا خيراً لها وأجدى.

■ ■ ■

٥ ـ سحاب فوق الأنامل

إن المرء لا يرضى عن الحياة بشكل كامل. هذا في الظروف العادية، فكيف لمن في ظروف أنونا الحالية.

من كان يظن، منذ بضعة أيام، عندما بدأت حملتها لتثبيط همة جوزف، إنها ستصاب باحباط لنجاحها السريع؟

بعد اليوم الاول، وبعد أن كان يعانقها حتى تراهما باميلا. راح يعاملها بانضباط وتجاهل كاملين.

تنهدت وهي تخرج تحت الدوش الدافىء، وتمد يدها الى المنشفة... عناق.. بسيط، يظهر كل يوم في الحياة العادية.. ومع ذلك فقد هز عناقه لها أسس إيمانها، أسس فهمها للعلاقة بين الانثى والذكر. المفهوم كان بسيطاً من قبل: تقع المرأة في الحب، تتزوج وتعيش سعيدة، وتنجب أولاداً... لكن أن يكون هناك هذا البكاء، الارهاق العاطفي؟ ثم.. ثم لا يعقل لفتاة واقعة في حب رجل... هو ألبكسي.. أن تحس بما تشعر به تجاه رجل آخر.

مدت يدها الى سروالها الكحلي والى قميصها البني ثم ارتدتهما.. هاك إذن أنونا. هذه ثياب ستبعد عنك أي إثارة قد تجذب جوزف الى قدك الجميل.

وربما كان ارتفاع حاجبيه عندما شاهدها تنزل السلم، محض خيال منها.. لكن الواقع أنه نظر نظرة غير مرحبة الى شعرها الرطب من جرّاء الحمام، والى ثيابها التي تفتقر الى الاناقة. لكن أنونا عرفت أن باميلا كانت أكثر خيبة لأن سيدتها الجديدة السنيورا بيري إستاليا لم ترتدِ ثوب سهرة.

عندما دخلت باميلا بالامس الى غرفتها لتوضيبها، توقفت عند الخزانة تلمس الفساتين الرائعة التي تحويها باعجاب، وتسأل:

ـ أنت تحبين السراويل سنيورا؟

ـ أجل.. أجدها عملية.

ـ آه.. عملية.. سي. لكنها ليست جميلة.

لم ترد أنونا غير متأكدة مما تقصده باميلا بتعليقها، أتتحدث عن السراويل أم عنها؟

جذب لها جوزف كرسي قريب منه على الطاولة.. هذه الحركة الرسمية أثارت توتر أنونا أكثر من المعتاد لكنها حاولت اخفاء التوتر. ونظرت إليه وهي تمد يدها الى ابريق القهوة:

ـ حقيقة جوزف توقف عن فعل هذا.

ـ عن فعل ماذا؟

ـ عن الوقوف لي كلما دخلت.. خاصة وأنا أعرف أنك تقرأ.

ـ شكراً لك.. سأذكر هذا.

والتقط الجريدة ثانية.

حدقت أنونا في الصفحات المطبوعة التي رفعها كالحاجز

بينهما، ثم ركزت اهتمامها على تقشير ثمرة دراق أخذتها من السلة في منتصف الطاولة. ثم كانت على وشك وضع الزبدة فوق قطعة خبز، وإعادة ملء فنجانها بالقهوة حين تحرك جوزف، ورمى الجريدة من يده على الارض.. فرفعت حاجبيها ومدت يدها إليه:

- أتريد المزيد من القهوة؟

- سي.. غراتسي.

وأعطاها الفنجان. ثم أخذ يحركه مفكراً، وقال:

- كنت أفكر أنونا، يجب أن تفعلي شيئاً لتعلم اللغة الايطالية. ليس من الجيد عدم التفكير بهذا لأنني وباميلا نتحدث الانكليزية. سيساعدك هذا على الوقوف في وجه زوجة عمي. ثم إن أليكسي سيتوقع...

- يسرني كلامك عن أليكسي... أريد معرفة مكانه.. وماذا يفعل.. ولماذا لم يتصل بي؟

وارتفع صوتها قليلاً لاضطرابها.. فرد عليها جوزف ببرود:

- هذه اسئلة لا أستطيع اجابتك عنها يا أنونا. لقد اتصلت بمكتبه بالامس.. و...

- اتصلت به؟ لماذا لم تقل لي؟ هل أكون آخر من يعلم؟ إن كان ما يزال في باريس فعلى الاقل...

- باريس؟ لماذا تظنينه في باريس؟

- لأنه قبل سفري بيوم واحد اتصل بي في لندن وأخبرني أنه سيكون في باريس. لكنه سيعود قبل زفافنا بليلة.

- أليكسي ليس في باريس.

وقف فجأة ليغادر الطاولة، ويقف قرب النافذة ثم أردف:

- إن معلوماتي تفيد أنه لم يذهب الى هناك مؤخراً.

- إذن أين هو؟

- حسب ما أعرفه... أليكسي في أميركا.

وصاحت همساً:

- أميركا... لكن...

التفت إليها بقوة:

- اسمعي أنونا.

وتقدم منها ليمسك بيديها:

- أليكسي سافر الى أميركا، ليدرس عمليات تطوير صناعة أدوات التجميل على ماكينات حديثة سيستوردها لمصنعه. ولدى أمه فكرة استثمار بعض الاموال في المصنع الذي يتدرب فيه، ولهذا السبب ارسله. كان المفروض أن يغيب ثلاثة أشهر، لكن...

- ثلاثة أشهر؟ وكيف سأتحمل هذه المدة؟ ثلاثة أشهر!

وجذبت يديها من يديه لتغطي وجهها.

- لا تجزعي «كارا».. كانت خطته أن يعود قبل أن تمضي الاشهر الثلاثة، وأعني أنه سيعود الى إيطاليا لا الى القصر. ثم سيأخذك مني، وبعدها تنطلقان معاً تحت الشمس.

- أيتصور أن ما حدث قد لا يغير شيئاً؟ وأنني مازلت أكن له الشعور ذاته؟ أو أنني سأثق به بعد اليوم؟

- أجل.. أظنه يتصور هذا.. لقد أخبرني أن لا شيء قد يغير شعوركما تجاه بعضكما... فكري أنونا... إن ما يقترحه

عليك أمر مميز. إنه يحضّر نفسه ليتحدى أمه، ليخدعها، كي يستطيع الزواج منك.

فردت بحزن:

ـ لكنه لم يكن مضطراً لكل هذا. كان بامكانه أن يقول لها إنه سيتزوج، لا أن يورطنا جميعاً في هذا الشرك.

ـ لكنني سبق أن قلت، أليكسي شخص رقيق... يفكر دائماً في وجهات نظر الناس، يتلهف دائماً لانقاذ الناس من القلق والتأثر..

فقاطعته بحدة:

ـ كل الناس إلا أنا!

ـ لا.. لقد كان قلقاً جداً عليك. ولا يجب أن تلوميه لأنه لم يكن أكثر حزماً مع أمه... ثم إنك كنت تعتقدين أن الكتمان أمر رومانسياً، وهذا ما جعلك تكتمين خبر زواجك عن أمك.. لقد شاركت في الخطأ أنتِ أيضاً.

ـ ما كان يجب أن أقول لك هذا.. وما كان يجب أن تذكرني به الآن.

ـ لا طبعاً.. أنت محقة.

ووقف مبتسماً وترك يدها من يديه الدافئتين المريحتين، ثم نظر الى ساعته:

ـ والآن.. لدي بضعة أعمال في المدينة، أتودين المجيء معي.. أم أنك قادرة على ملء فراغ ساعتين أو يزيد وحدك؟

ـ سأكون على ما يرام.. سأكتب بضع رسائل.. لكن.. قلت إنك اتصلت بمكتب أليكسي...

ـ صحيح، لم أخبرك عن اتصالي لأنني لم أجد تفاصيل تذكر عن مكان وجوده. كان قد قال لي إنه سيترك عنوانه ورقم هاتفه، لكن حسبما قالت سكرتيرته، وهي إحدى الخاضعات لسلطة السنيورا، إنها لا تعرف له عنواناً ثابتاً. سامحيني الآن، فأنا على عجل من أمري، لدي موعد مع المحامي ويجب أن أذهب.

ولامس بشفتيه وجهها بسرعة وخفة علمت منهما أنونا أنها ليست إلا قبلة واجب. لكنه لم يدرِ ما هي المشاعر التي أثارها هذا التلامس البسيط في نفسها..

ركضت الى غرفتها وهي تشعر بشعور غريب بالخفة، خلعت ملابسها وغسلت شعرها الذي أشعرها بالسرور لأنه عاد براقاً ناعماً، ولم تلبث أن ارتدت أحد أثواب السباحة التي اشترتها لشهر العسل الذي كان مقرراً في اليونان، وابتسمت لنفسها في المرآة ثم نزلت الى الطابق الارضي، مارة بالمطبخ أولاً:

ـ باميلا.. سأخرج لأعرّض جسدي لأشعة الشمس قليلاً، ثم سأسبح قبل أن يعود السنيور جوزف.

استدارت باميلا عن المغسلة لتقول لها:

ـ أجل سيدتي.

ثم أعادت النظر، واتسعت عيناها بالدهشة.

ـ أوه.. سنيورا هذا جميل!

ـ مسرورة لأنه أعجبك باميلا.. فأنا سعيدة به.

ـ سي... تبدين.. مختلفة.. سنيورا.. وأنا سعيدة لأن

الفرصة تسنح لي لأكلمك سنيورا. . .

وصمتت مترددة. . فسألتها أنونا:

ـ أجل باميلا. . ما الامر. . .

ـ كنت هنا منذ فترة طويلة. . والآن أنا. . . حامل. . .

ـ ماذا؟

ـ سأرزق بطفل سنيورا. . . لم نكن نتوقع أن ننجب طفلاً بعد هذه السنوات الطويلة التي لم نستطع خلالها الانجاب.

فابتسمت أنونا بارتياح وسعادة:

ـ لكن هذا خبر عظيم باميلا. . وأنا واثقة من أن جوزف سيغتبط، بكل تأكيد.

ـ طبعاً سنيورا. . لكننا نخشى أن يرفض السنيور وجودنا بعد أن ننجب طفلاً. . فالطفل لا يناسب. .

ـ أوه. . لا. . أنا واثقة أنك مخطئة باميلا، لا أستطيع تصور جوزف. . .

صمتت أنونا وقد أدركت أنها تحمل الكثير من الامور على عاتقها، لكن باميلا لم تلاحظ ترددها. . . فقالت بحماس:

ـ أوه سنيورا. . لقد قلت لبيدرو إن لا عقبة. وقلت بما أن السنيور الآن تزوج من سنيورته، لم يعد يحتاج كل وقتي. وأنت تحبين العمل، أرى ذلك، من طريقة ترتيب غرفتك وتنظيفها ومن خلال مساعدتك إياي في المنزل. . . ستشرحين الامر إذن للسنيور جوزف؟

ـ بالطبع سأفعل باميلا.

وخرجت لتجلس على المقعد الخشبي الطويل قرب البركة،

وعلى وجهها تعبير التفكير.

لكن جمال واكتمال صفاء اليوم كانا كافيين لازالة أي توتر بشأن الطريقة التي قد يتلقى بها جوزف الخبر. وسرعان ما بدأت مشاكلها، ومشكلة باميلا الجديدة تتبخر تحت أشعة الشمس، وبدأ الالم الذي يكاد يصل الى عظامها يخف تدريجياً. في هذه اللحظات كل ما تطلبه من الحياة الرّاحة.

لم تدرِ أنونا كم نامت وما هو الذي أيقظها. . أهو رنين الثلج على زجاج الكأس أم الظل الذي مر بينها وبين أشعة الشمس. مهما كان السبب، فقد فتحت عينيها فجأة، وخفق قلبها وهي تتأمل الجسد الطويل الاسمر.

ـ آسف حبيبتي. . لقد قرّبت المظلة لتقيك حرّ الشمس. . ولم أقصد ازعاجك. . كنت تبدين ساكنة مرتاحة.

وجدت امتزاج نظرته المعجبة، وبشرته السمراء أمرين يثيران الاضطراب، فأنزلت ساقيها عن المقعد ووضعت قدميها على الارض، ثم مدت يدها فتناولت نظارتها عن الطاولة.

ـ لا. . لم أشأ النوم.

ووقفت، ثم أكملت بلهجة اتهام، ربما كانت سبباً في ابتسامته الملتوية:

ـ ظننتك ستغيب ساعات.

ـ ربما كنا نتشاطر الافكار ذاتها أنونا. فقد أغرتني نفسي بالسباحة. . . لكنني ما تصورت أنني سأحظى برفقة زوجتي الجميلة. . . اجلسي أنونا. اقنعت باميلا بأن تصنع لنا ابريقاً من عصير البرتقال. دعيني أصب لك كأساً.

ـ لا... لقد أمضيت وقتاً طويلاً تحت الشمس في الواقع، ولقد وعدت باميلا بمساعدتها في أعمال المنزل... ثم أنا لا أرغب في التعرض كثيراً لأشعة الشمس دفعة واحدة لئلا أصاب بالحروق.

مد يده الى كتفيها اللتين أشارت إليهما، فلمسهما، ثم أنزل اصبعه متسللاً ما بين جسدها وذراعها.

ـ لا أظن أن هناك خطراً بهذا.. فاجلسي أنونا، واشربي هذه.

الكأس التي قدمها لها كانت باردة فيها الثلج مغر، جذب جوزف كرسيه قريباً منها حتى أصبحا في مواجهة بعضهما بعضاً، متلامسين تقريباً، فحاولت التفكير في موضوع ما ليتحدثا به فيبعد عنها التفكير في هذا الوضع الحميم.

ـ انهيت عملك؟

ـ أجل.. انهيته بأسرع مما توقعت، ولم استطع البقاء بعيداً عنك.. واستطيع القول إن هذا الثوب أجمل بكثير مما اعتدت ارتداءه، وشعرك كذلك.

تجاهلت تعليقه، مع أنها وجدت صعوبة في السيطرة على اللون الزهري الذي أخذ يزحف الى وجهها، لاحظ هذا بابتسامة ساخرة.. كان يجب أن تغير الموضوع بسرعة لذا سارعت الى القول:

ـ أخبرتك باميلا شيئاً؟

ـ باميلا؟ عمَّ؟

ركزت عينيها على وجهه:

ـ ألم تقل شيئاً عن الطفل؟

ـ طفل؟ طفل! بالله عليك لماذا لم تخبريني؟

ـ أخبرك؟

تلاشى لون وجهها وتركها بيضاء شاحبة.. لم يكن لديها شك في أنه أساء فهمها، وأحست بالسخط، وبألم غير مبرر، مع انها حاولت الرد بهدوء:

ـ لماذا أخبرك بحق الله أن باميلا حامل؟

ـ باميلا؟

نظر إليها بحيرة قبل أن تسترخي أعصابه بوضوح، ثم ابتسم:

ـ أوه.. للحظات ظننت...

ـ أعرف تماماً كيف تفكر.

ووضعت الكأس من يدها، ثم انزلت ساقيها عن الكرسي ووقفت:

ـ لكنني الآن سأدخل، لدي بضع رسائل أكتبها...

قفز جوزف واقفاً بحركة واحدة وأمسك بيدها:

ـ لا أنونا... انتظري، لقد صدمتني. فاستنتجت ما هو خاطىء... هذا كل شيء.

ـ هذا طبيعي منك. على كل الاحوال باميلا قلقة من الوضع. يبدو أنها تفكر في أنك ستطردهما الآن بعد حملها.. و...

ـ لا أصدق أنها قالت مثل هذا الكلام... وإذا كان هذا يمسح هذا التعبير القاسي عن وجهك، أكدي لها أنني سأكون

سعيداً بطفلها.

ـ لكن، لم تبدُ سعيداً عندما أخبرتك.

ـ أوه أنونا. . لقد اعتقدت أنك. . .

ـ أعرف ما اعتقدته. . لكن لماذا تهتم؟ لو كنت أنا الحامل فماذا يهمك؟

ـ لا أعرف أنونا. . . لكنني أعرف أن الامر مهم لي. . . كثيراً. أتعلمين. . لا يجب أن تخفي هاتين العينين وراء نظارات قاتمة، فمن المؤسف حرماننا من متعة النظر إليهما.

ومد يده وهو يتحدث ليخلع النظارات عن عينيها، فحاولت اعادة انتزاعهما، لكنه أبعدهما على مدى ذراعه:

ـ أرجوك. . ردّها إليّ. أتسمح؟

ـ لماذا؟ كي تختبئي وراءهما ثانية؟ مما تخافين؟ لماذا ترتدين أبشع الملابس وترجعين شعرك الى الخلف وكأنك امرأة عاملة ترتدي ثياباً قديمة الطراز؟

فشهقت:

ـ كيف تجرؤ على هذا القول!

فلان صوته قليلاً ليكرر سؤاله:

ـ لماذا أنونا؟ وأنت قادرة على أن تظهري جميلة كما كنت منذ قليل أثناء تمددك على الكرسي؟ أنت خلاّبة رائعة الجمال حتى يكاد الرجل يفقد عقله ويضيع فيك.

مد يده فلامس شعرها، ثم أنزل اصابعه الى كتفيها. . ولم يلبث أن رفع بها ذقنها بحزم لئلا تتهرب من عينيه. وتابع سؤاله بنعومة:

ـ لماذا. . . أنونا؟

حاولت جاهدة تجاهل الرغبة المعذبة التي تهدد بأن تتملكها وتسيطر على جسدها كله.

ـ لماذا؟ لأن. . . لأنني أظن أن الامر واضح. . أظنه نوع من الكفّارة.

ـ كفّارة؟

ـ أجل. . كفّارة لن أتخلى عنها حتى أشاهد أليكسي ثانية.

ـ هكذا إذن؟

بدا وكأنه يفكر إن كان ما تقوله صادقاً. ثم سرعان ما أنزل يده عن ذقنها، وتركها. . . لكن الغريب أنها من كانت توّاقة للخلاص، ومع ذلك فقدت كل رغبة في هذا الخلاص.

سمعته يردف:

ـ لقد فهمت! لكن يجب أن تكوني حذرة أنونا. فإذا بالغت بالامر، فستجدين أن أليكسي لن يعرفك عندما يعود على هذا الشكل.

ـ لا أظن أن هذا محتمل.

ـ ربما. . . والآن سأنضم إليك للسباحة. . أتنتظرينني لحظات لأغير ملابسي؟

كان جوزف سباحاً ماهراً لكنها استطاعت أن تظهر براعتها لأنها رياضتها المفضلة. لاحظت أنه يخفف من سرعته لتتماشى معه أثناء اجتيازهما البركة جيئة وذهاباً، لكن عندما بدأ يلعب بالكرة الكبيرة العائمة على وجه الماء أحست بالراحة. ونسيت توترها وهي تلاحق الكرة بضربات ذراعيها. ضحك جوزف،

بعد أن أصرت على أنها مرهقة، وصعدت تجلس على حافة البركة.

ـ أنت فتاة رائعة.

سرها اطراؤه، فابتسمت، لكنها سألته:

ـ ماذا؟

ـ أجل.. أنونا..

كان صوته عميقاً خفيضاً أجش.. مد يده الى عنقها فجذبها إليه.. عندها ارتجفت غير قادرة على الهرب منه، مع أنها تعي تماماً المخاطر الكامنة وراء تقاربهما، وتحركت يده الأخرى ليجذب خصرها.. إن الغريب ارتجافها بهذه الحمى من الاثارة التي تملكتها، لكنها لم تشعر إلا بأنها تتنفس يائسة وإلا بأنها تترك نفسها لتنضم الى صدره فأحست بضغط أطرافه عليها، وأخيراً انفتحت أناملها فوق بشرته الباردة المبللة.

قال بصوت منخفض، نصفه آهة، ونصفه انتصار، وبدا أن اسمها عالق بين شفتيه:

ـ أنونا.. أنونا.. حبيبتي.

قبل أن يغيبا عما حولهما، سمعا وقع حذاء يضرب بحدة فوق الارض المرصوفة الى جانب المنزل. وسمعا باميلا تتكلم، يتبعها صوت آخر، أقل حدة. صوت نسائي جذاب، وبقسوة وألم، وجدت أنونا نفسها بعيدة عنه... وسمعته يتمتم بذهول قبل أن يعود الى الماء ليظهر في الناحية الاخرى من البركة.

وقفت أنونا تحس بالدم يجف من قلبها.. وكأنما الدنيا كلها، قُدمت إليها فوق طبق... ثم سُحبت منها فجأة.

٦ ـ ضباب القلوب

دون أن ترى، مدت أنونا يدها الى الروب ووقفت، تحس بأنها على وشك الغثيان. في الطرف المقابل للبركة، شاهدت باميلا تميل فوق الماء لتقول شيئاً لجوزف، وعلى وجهها تعبير القلق. نظر جوزف خلف باميلا، الى الجسد الممشوق الواقف قرب الطاولة، فابتسم. ثم بقفزة واحدة كان خارج الماء يسير الهوينا نحو المرأة الانيقة التي انحنت نحوه تقبله.

تقدم جوزف والمرأة نحوها.. ثم ابتسم لها وكأنما مقاطعة تلك اللحظة الحميمة بينهما لا تعني له شيئاً.

ـ أنونا.. تعالي وتعرّفي الى ڤيرونيكا.

خطت أنونا خطوة الى الامام ترسم ما يشبه الابتسامة على شفتيها. وضع جوزف ذراعه حول كتفيها، ثم التفت يواجه الزائرة.

ـ هذه ڤيرونيكا.. إنها وعائلتها أصدقاء لي منذ قدومي الى هذا المكان لاجئاً مفلساً... هذه أنونا... لقد تزوجنا منذ بضعة أيام.

أكان في نظرة الفتاة الأخرى حدة ما؟ أظنت أنونا أنها سمعت تنفس الفتاة الحاد، قبل أن تشتد شفتيها الحمراوين

لتصبحا خطاً رقيقاً، ولتصبح شفتها السفلى بين أسنانها؟ نعم كان ذلك كله في لحظات سريعة.

ـ تزوجتما؟

اعتبرت أنونا لهجة الفتاة وضحكتها، قمة الفن في السيطرة على النفس وساد صمت قصير أردفت بعده:

ـ إن هذا لرومانسي رائع!

ومدت يدها لتلمس باصبعها الاحمر ظفره صدر جوزف:

ـ جوزف... كيف كنت كتوماً هكذا؟ لماذا خبّأت عروسك؟ أنت تعلم أن أصدقاءك سيحبون... رؤيتها...

ـ لم أخبئها، لكن كما قلت، تزوجنا منذ أقل من أسبوع

ولامس بخده رأس أنونا، كي تفهم فيرونيكا الرسالة. لكن الفكرة جعلت أنونا تحمرّ خجلاً، ثم تبتعد عن حماية ذراعه:

ـ حسناً.. لو تعذراني.. سأذهب لارتدي ملابسي.

ولوحت فيرونيكا بيد متفهمة:

ـ طبعاً... سأحتفظ بأسئلتي حتى تعودي.

وقال جوزف:

ـ سأقنع فيرونيكا بالبقاء للغداء حبيبتي.

التفتت أنونا بحدة، وكانت سعيدة لأن ظهر المرأة نحوها، فنظرت الى زوجها بحدة، لكنها قالت بنعومة:

ـ ما أجمل هذا!

لكنها تأكدت من أن نظرتها السامة لم تترك في نفسه شك من حقيقة مشاعرها.

هزت أنونا زجاجة زيت الشمس وهي تقف أمام المرآة...

لم تستطع تفسير الكراهية التي أحست بها تجاه الزائرة.. لا بد أن لها علاقة بالرسمتين المرسومتين بالقلم الرصاصي والمعلقتين في غرفة نوم جوزف، فهي أصلاً لم تعجب بهما رغم وجود صاحبتهما اليوم هنا. نعم هي لا تنكر أن الزائرة غيرّت تسريحة شعرها، لكن تسريحتها الحالية، وقد بلغت الثلاثين من عمرها دون شك، لا تناسبها الآن أبداً.

صبت زيت الشمس على شعرها، وابتسمت لنفسها وهي تسرحه وتربطه بطريقة خرقاء.. ثم فتشت عن أقدم جينز عندها وعن قميص جاف خال من الالوان.. ما ستراه فيرونيكا عند الغداء سيرفع دون شك من معنوياتها.. وقد أكد لها أنها أحسنت الاختيار الطريقة التي ارتفعت فيها عينا جوزف وحاجبيه غضباً، اضافة الى التواء فم فيرونيكا. تظاهرت أنها لم تلاحظ رد فعل جوزف، تمادت مع الأخرى بابتسامة، ثم تناولت الكأس التي قدمها جوزف لها.

لوحت بيدها دون اكتراث بما اندلق على سروالها من شراب الكرز.

ـ أرجوكما.. تابعا التحدث بالايطالية. سأحاول الإصغاء الى الحديث. وإذا كان هناك كلمة لم أفهمها، بامكانكما الانتظار الى أن أجدها في الكتاب.

ـ أخشى يا عزيزتي أنك ستحكمين علينا بغداء صامت. فهذا الكتاب لن يفيدك.. وأظن أننا حتى الوقت الذي نجد لك فيه من يعلمك الايطالية، علينا الالتزام بالانكليزية، وأنا واثق من أن فيرونيكا لن تمانع.

فاستلقت أنونا على الاريكة حيث تجلس، ومدت قدمها لتظهر «السنيكرز» القديم ولتلفت الانتباه.

ـ لا.. بل أنا مصرّة. هيا.. تكلما.

ثم ابتلعت جرعة كبيرة من الشراب بصوت مرتفع.. وكل ما كانت ترجوه أن ترى الازدراء على وجه ڤيرونيكا... لكن شيئاً ما... ربما الخوف، منعها من الالتفات لرؤية رد فعل زوجها.

دخلت باميلا فأعلنت عن الانتهاء من اعداد الغداء، لكنها لم تستطع اخفاء امتعاضها من وجود الضيفة، كما لم تستطع اخفاء امتعاضها مما ترتديه سيدتها... لكن ما ترتديه ڤيرونيكا لم يكن ليجعلها جميلة، فعيناها خضراوان شاحبتان وكأن لا لون فيهما، وشعرها أسود، وبياضها شديد بحيث لا يجعلها مميزة.. أحست أنونا أن المرأة تسألها شيئاً:

ـ آسفة.. آسفة ڤيرونيكا لم أسمعك.

ـ كنت اسأل.. كيف تحسين وأنت متزوجة من مصور شهير.. ألا تجدين عالم الازياء مخيفاً لك...؟

ونظرت الى مضيفها نظرة تسلية.. ولم تستطع أنونا أن تفلت فرصة تسجيل انتصار من يدها:

ـ لا!... لا أظنه مخيفاً.. فأنا معتادة تماماً عليه.

ـ معتادة عليه!

الدهشة وفغر الفم كلمتان غير لائقتين، لكنهما الوحيدتان اللتان استطاعت أنونا أن تصف بهما حالة المرأة.. وجاء دور أنونا لتنظر الى جوزف فأثار اهتمامها مشروع البسمة على

شفتيه، وأجابتها:

ـ أجل.. فأنا أعمل في هذا المضمار.

لم تستطع ڤيرونيكا إيقاف عينيها من الدوران على ما يبدو فوق جسد أنونا الرث الثياب.

ـ أنت...! أنت تعملين في الازياء؟

كانت لهجتها تنبيء أن هناك مجالات عديدة من العمل في الازياء لكن قبل أن تتمكن من الاسترسال بأسئلتها، مالت أنونا نحوها تقدم لها طبق السلطة.

ـ لا.. لا.. شكراً لك.

والتفتت الى جوزف بحيرة:

ـ حسناً.. انكشف سرّك الآن، فمتى ستقيم حفلة تقدم فيها زوجتك لاصدقائك؟

وتحولت العينان اللتان لا لون لهما لتنظرا الى أنونا برضى:

ـ أنا واثقة أنهم سيحبونها عندما يرونها.

فرد جوزف بهدوء:

ـ كيف أفكر في هذا.. قررت إنه ليس من العدل الاحتفاظ بها لنفسي أكثر. سأقيم حفلة مساء السبت أعرف فيها الجميع الى أنونا!... نأمل أن نراك ثانية أليس كذلك حبيبتي؟

النظرة التي رمق أنونا بها كانت مشحونة بالتحدي، فكشرت عن اسنانها بشبح ابتسامة مغتنمة فرصة ادارة ڤيرونيكا لرأسها:

ـ طبعاً.. حبيبي.

ونظرت الضيفة بريبة وغيرة الى أنونا. فأخذ جوزف ينقل البصر من إحداهما الى الأخرى.

- لديّ فكرة، هذا إذا استطعت اقناع ڤيرونيكا.

فقاطعته أنونا بعذوبة أمام نظرة الفتاة الأخرى الشرسة:

- لن يكون هذا صعباً.. تبدو ڤيرونيكا سهلة الانقياد.

- كنا نتحدث عن دروس اللغة الايطالية لك، فلماذا لا تتولى ڤيرونيكا تعليمك؟ وهذا ما يساعدكما على التعارف أكثر.

وساد صمت، بدا أن جوزف لم يحس بتوتره.. إلا أن أنونا شعرت بأن عقلها يدور في دوامة بحثاً عن عذر، وكانت على ثقة من أن ڤيرونيكا تمر بالتجربة ذاتها. لكن ڤيرونيكا استعادت رباطة جأشها بسرعة:

- أوه.. سيكون هذا رائعاً جوزف.. لكن لسوء الحظ سأكون خارج المنزل فترة طويلة في الاسبوعين القادمين.

والتفتت الى أنونا:

- كيف تبدو لك فكرة السفر الى أميركا؟

- أميركا؟

فرد جوزف:

- إنها لا تعرف عن هذا بعد.. أبقيت الامر مفاجأة لها. لكن بما أن ڤيرونيكا ذكرت هذا فأخبرك أنني سأسافر بعد عشرة أيام حبيبتي، وبالطبع سترافقينني.

والتفت ليكلم الضيفة:

- والدة أنونا موجودة في نيويورك، ونرجو أن نلتقيها عندما نصل الى هناك.. ونحن نتوق للانطلاق في شهر عسلنا الذي تأخر حتى الآن.

نظرت عيناه بحب الى أنونا التي احمرت وجنتاها، لكنه لم

يلاحظ احمرار الغضب على وجه المرأة الأخرى.. ثم وضع مرفقه على الطاولة يسند وجهه بيده:

- قد نذهب الى مكان ساحر بعد انهاء عملي... أين تودين الذهاب حبيبتي؟ ميامي. المكسيك أو مكان دافىء في الانتيل؟ حيث نتكاسل على الشاطىء طوال اليوم.

فقاطعته ڤيرونيكا بنعومة، دون أن تظهر مشاعرها إلا عبر ارتجاف شفتيها:

- وماذا عن مارلين؟ أتتوقع رؤيتها هذه المرة؟

- هذا أمر لا بد منه. وطبعاً انتظر بفارغ الصبر أن أراها.. إنها من خيار الاصدقاء.

سرعان ما انتهت وجبة الطعام ووقفت أنونا وذراع جوزف حول كتفيها يراقبان ڤيرونيكا تركب سيارتها الصغيرة وتدير المحرك:

- أراكما يوم السبت إذن.

لوحت بذراعها وانطلقت بسرعة لتخرج من باحة المنزل. عندها سارعت أنونا الى تحرير نفسها من ذراع زوجها ثم صعدت الدرج لكنها قبل أن تضع قدمها على الدرجة الأولى ناداها. فالتفتت تواجهه متحدية:

- نعم!

- أطلب منك عدم العودة الى ارتداء هذه الملابس المقرفة..

- ماذا تطلب؟

عادت الى الانطلاق فوق السلم وهي تضحك، وقد سرها

اكفهرار وجهه، لكنه تقدم نحوها بخطوتين ووضع يده فوق يدها التي استندت فيها الى الدرابزين.

ـ أنونا. . . إذا اردتني أن أفرض بقوة، فسأقول إنني أمنعك من ارتدائها.

ـ إياك، لا يحق لك أن تمنعني عن فعل شيء! فهذا لا يعجبني!

ـ ملعونة أنت وملعون ما لا يعجبك.

نظرت إليه ببرود، ثم بتكبر واثق وقفلت بعدها ترتقي الدرج ببطء.. لكن الثقة تزعزعت حين أدركت أنه لحق بها.. فعندما وصلت الى الزاوية حيث ينعطف الممر تحت النافذة المرتفعة، راحت المسافة بينهما تقصر، ودون ارادة منها حثت الخطى مسرعة وهي تشعر بقلبها يخفق، ثم تخلت عن كل تظاهر، وولّت هاربة الى غرفتها.

في الداخل اسندت ظهرها الى الباب تحاول التقاط أنفاسها، لكنها سرعان ما أحست بمقبض الباب يتحرك تحت اصابعها، فحاولت وضع قدمها أمام الباب لتمنعه من أن ينفتح، لكن جهودها ذهبت سدى وهي تشاهد قدمها ترتد قليلاً قليلاً الى الوراء.. وينفتح الباب بقوة.

تباً! تباً! لماذا يصنع الناس أبواب غرف النوم دون اقفال مناسبة؟ ثم واتتها الفكرة... للحمام قفل. ركضت بسرعة عبر الغرفة لترمي نفسها داخل الحمام حيث أحكمت إقفال الرتاج الداخلي.

راح يضرب الباب:

ـ أنونا! لا تتصرفي كالاطفال! ألا يمكننا أن نتحدث مستخدمين المنطق.

ـ نتحدث تحت.

ـ أفضل أن نتحدث الآن.

ـ ليس في غرفة نومي.

ضغطت رأسها على الباب، فسمعت تنهيدته المثقلة، ثم وقع أقدامه عبر الغرفة، لكنها عرفت أنه يقف الآن في وسطها، ربما يحدق في الباب الموصد بتلك التقطيبة التي أصبحت تعرفها جيداً.

رغم صدمتها بقساوة الموقف، ابتسمت قليلاً، ثم التقطت منشفة لتمسك دمعة انسلّت من عينيها. بعد ذلك وضعت أذنها مجدداً على الباب، فسمعت صوت فتح أبواب الخزائن وصوت مشاجب الملابس تندفع من جهة الى أخرى.. فراحت تضرب الباب وكأنها سجينة في الحمام:

ـ جوزف!

ـ نعم يا حبيبتي؟

كان صوته أرق من الحرير، لكنه على ما يبدو كان مشغولاً بشيء ما.

ـ ماذا تفعل بخزانتي؟

ـ ماذا قلت حبيبتي؟

وتقدم الى الحمام ليجرب فتح الباب، فضربت الباب من الداخل بقبضتها:

ـ لا تفتحه.. ألم يعلمك أحداً عدم التطفل على سيدة في

الحمام؟
ـ أنت لست سيدة أونا. . أنت زوجتي.
ـ حسناً. . أنا لا أعترض.
انتظرت رداً، وحين لم تسمعه أحست بالخيبة. . فضربت الباب بيدها ثانية.
ـ جوزف. . ! جوزف؟
وضربت الباب من جديد. . يا لخيبة الطفلة الفاسدة.
أصغت بحذر الى الصمت التام في الخارج، ففتحت الرتاج، ثم الباب بأقل ضجيج ممكن، نظرت عبر الشق فلمّا رأت أن كل شيء على ما يرام. . . خرجت الى غرفة النوم.
ـ والآن أونا.
هبّ جوزف من المقعد الجالس عليه قرب النافذة غير غاضب ولا مسرور، وتقدم ليسد عليها طريق العودة الى الحمام.
ـ أنا مسرور لأنك قررت الخروج.
ـ خرجت لأنني اعتقدتك ذهبت. . . وأنا عادة لا أستقبل الرجال في غرفة نومي وسأكون شاكرة لو تذهب من هنا.
ـ هذا صحيح وصواب، وأنا مسرور لأنك أكدت لي هذا، لكنني أظن أنه في مثل هذه الحالة ثمة استثناء، وكما أكدت لك منذ ليلة أمس أنت آمنة مني.
ـ لن تخدعني بهذا.
فابتسم:
ـ أظن يا عزيزتي أننا نحاول، وإن لم ننجح. . خداع بعضنا

بعضاً.
ـ لا أفهم ما تعني. لكنني أود لو أعرف ماذا كنت تفعل في خزانتي. .
نظرت حولها فوجدت كومة ملابس مرمية على الارض في الزاوية، وهي كلها من الجينز والقمصان، التي كانت ترتديها في الايام الأخيرة.
ـ كيف تجرؤ! كيف تدخل غرفتي وتعبث بثيابي! هذا أمر حقير!
ـ لديك خزانة مليئة بالملابس الجميلة، وأرفض رؤيتك في ملابس رثة. . .
ـ سأرتدي ما يحلو لي بالضبط.
رد بصوت قاس يدل على عدم التنازل:
ـ ليس في منزلي. . ففي هذا المكان رغباتي هي العليا. لقد أبديت وجهة نظرك. . وأفهم أنك تريدين قص شعرك حتى يعود أليكس.
وضحك بسخرية:
ـ لكنك قد تجدين هذا أنسب عند عودتك الى القصر.
فارتجف صوتها:
ـ كيف تتحدث عن أليكس وكأن. . .
ـ ماذا تعرفين عن أليكس؟ أتظنين فعلاً أنكما تعرفان بعضكما بعضاً؟ سأقول لك أونا. . .
خطا الى الامام وأمسك بمعصميها:
ـ ستضجرين من أليكس بعد ستة أشهر.

- ظننتك تحبه. . لقد قلت إنه بمثابة أخ لك.

- نعم أنا أحبه كأخ. لكن هذا لا يعني أن أتغاضى عن مساوئه.

- وأنت لا مساوىء لك!

فضحك:

- لـي أنـا أيضـاً مساوىء لكنهـا مختلفـة عـن مسـاوىء اليكسـي. . .

تلاشت الابتسامة عن شفتيه، فبدا هادئاً مع قليل من التجهم:

- إنه ليس الرجل الذي سيرضيك أنونا.

- وأنت القادرة على ارضائي.

فجأة ترك يدها وقال بصوت هادىء:

- لماذا تقولين هذا أنونا؟. . وأنا قلت لك مراراً إنك آمنة معي.

فابتعدت عنه، لكنه أمسك بكتفيها واصابعه تغرز في لحمها وقال بصوت قاس مصمم على السيطرة.

- أعطني الملابس التي ترتدينها أنونا. . . سأضيفها الى الكومة الأخرى وسأجعل بيدرو يضرم النار فيها.

اطلقت نفسها من قبضته، وأدارت جسدها لتواجهه ثانية.

- أنت أظلم رجل شرس. . .

- صحيح أنونا؟

- لكنك لن تجبرني. .

- بلى أنونا. . ثمة طريقة، أنا قادر تماماً على تنفيذها. . إذا

رفضت أن تكوني عاقلة.

- ماذا تعني؟

- أعني يا عزيزتي. . . أنني قادر تماماً على نزع ملابسك بنفسي. . هذا إذا لم تدعني لما أريد.

- لن تجرؤ!

فابتسم ساخراً ابتسامة تحذير:

- سأفعل يا أنونا.

- سأصرخ لباميلا.

وأمسكت ياقة قميصها بتوتر. فهز كتفيه:

- لـن تسمعك. ولـو سمعتك فستبتسم معتقـدة أننا نتمتع بوقتنا!

- لماذا يعود تفكيرك دائماً الى الموضوع نفسه؟ على كل باميلا تعرف أننا لا نتشارك غرفة النوم نفسها. . و. .

- آه. . لكنني أتخذ حيطة لئلا تشك في هذا. . . يمكنك عزو هذا لكرامتي كرجل إذا أحببت. ما من رجل يحب أن يظن العاملون في بيته، أن عروسه التي لم يمضِ عليها بضع أيام، قانعة في قضاء لياليها وحدها.

حدقت فيه أنونا، لا تريد الاعتراف بأنها قبل أن تترك غرفتها صباحاً تضرب الوسادة الأخرى، لتظهر أن أحداً ما كان ينام عليها. . ولن ترغب على الاطلاق في أن يعرف بأنها لا تريد أن تظن باميلا أن العريس لا يرغب في العروس.

وهزها من كتفيها بلطف:

- أنونا. . . لماذا أنت خائفة هكذا؟ لقد قلت لك، ليس

لدي..

وتركها فجأة:

ـ أتودين أن ندعو الامر عقوية لنا كلينا؟ أظن أن علينا معاً أن نمتنع عن هذه الحركات. كل ما أطلبه منك أن تنفذي ما أريد، خاصة فيما يتعلق بالملابس.. أتسمحين بهذا أونا؟

ـ حسن جداً.

ـ فتاة طيبة!

ومال ليطبع قبلة خفيفة على خدها، ولامس ياقة قميصها.

ـ لست أدري ما إذا كنت أريد أن أكون سعيداً أم حزيناً.

وارتد على عقبيه خارجاً من الغرفة.

يا إلهي.. ماذا يحدث لي؟

لكنني أحب أليكسي!

حاولت بيأس أن تتذكر كمال ومثالية الايام التي قضياها معاً، في بداية وقوعهما في الحب.. وأن تستعيد الذكرى في ذهنها.. لكن قسمات وجهه بدت وكأنها تصبح ضبابية.. تتسلل هاربة من ذاكرتها، كلما ظنت أنها توصلت الى تحديدها.

دائماً، كان يحل مكانها تلك القسمات التي تبدو هادئة، مألوفة، قوية، شرسة، ينقصها الكثير من النعومة التي أحبتها في أليكسي.

لكنها الآن أصبحت تخشى، وتخاف بقوة، إنها وبعد معرفتها بابن العم الآخر.. لن تعود معجبة بالاول.

■ ■ ■

٧ ـ على ضفاف النسيان

في اليوم التالي، ذهبت أونا مع جوزف الى بلدة «بريشا» لشراء ما رأيا أنه ضروري للحفلة التي ستقام في اليوم التالي.. وكانت تشعر بالسعادة لأنها اضطرت أخيراً الى ارتداء أحد فساتينها. جوزف لم يقل لها شيئاً عندما دخلت عليه الى غرفة الطعام صباحاً، إلا أن عينيه أرسلتا إليها رسالة إعجاب وموافقة وهو يتمنى لها صباحاً جيداً.

أما باميلا فكانت أقل تحفظاً فعندما جلست معها الى طاولة المطبخ تسجلان لائحة الأغراض المطلوبة للشراء قالت باعجاب ظاهر:

ـ فستانك رائع سنيورا.

ـ أجل إنه فستان جميل، اشتريته من عرض أزياء قبل مجيئي الى هنا.

وقفت لتدور حول نفسها لتري باميلا كيف تلتف الجونيلة من الخصر، ثم ملست أعلى الفستان حيث يلتصق بجسدها. مع ذلك لم تكن راغبة في الاستسلام كل الاستسلام لئلا تعطي جوزف فكرة عن تشوّقها لفعل ما يريد.

إلا أن جوزف، لخيبة أملها، لم يعلق بشيء، مع إنه كاد لا

يبعد عينيه عنها لحظة، أثناء توجههما الى الطاولة المستديرة لتناول الفطور. لكنه هذا الصباح، يبدو أقل توتراً من ليلة الامس. وهذا ما لاحظته تماماً، وقد فكرت فيه ثانية عندما كانت باميلا تنظر الى انعكاس صورة سيدتها على زجاج الباب وهي مرتدية الثوب التركوازي البراق. وابتسمت لباميلا بسعادة واثارة وهي تلتقط اللائحة المكتوبة عن المائدة.

- أهذا كل شيء باميلا؟

- أظن هذا.

- إذن من الافضل أن أسرع قبل أن ينفذ صبر «سيدي».

- أنا سعيدة لأنكما سويتما الامور بينكما أخيراً.

خرجتْ من المطبخ تقصد غرفتها وتلف شعرها بوشاح صغير جميل أزرق وأبيض عقدته خلف شعرها عند العنق.. وضعت لمسة أخيرة من أحمر الشفاه ثم التقطت حقيبة يدها، وعادت راكضة الى الردهة..

اتجهت مفكرة الى حيث كان جوزف ينتظرها قرب السيارة.. وقف جامداً يحملق فيها من فوق سقف السيارة، عيناه جعلتاها تحس بوجودها كما تحس بوجوده. حين دنت منه كانت مقطوعة الانفاس، وقفت تنظر إليه. كانا كلاهما يختبيء وراء نظارته السوداء، وكانا كلاهما يبحث عن شيء.. لم تكن تعرف ما هو..

امضيا في البلدة ساعتين بسعادة يفتشان عن أنواع الاطعمة التي طلبتها باميلا. أنونا تحدق مقطبة الى اللائحة التي تشطب منها ما اشترته.. لكنها كانت طوال الوقت تبدي الاعجاب

بسحر البلدة الصغيرة وتعترف لجوزف بأنها لم تسمع بها من قبل:

- بريشا إن لهذه البلدة الجميلة اسم نادر.. أما منازلها والافنية المحيطة بها فكأنها من غير هذا العالم!

- أجل، إنها ساحرة.

- إذن، أعتقد أنك سعيد جداً هنا يا جوزف.. فالمنطقة أجمل بكثير من...

وترددت، تتساءل عما إذا كان ما ستقوله قد يؤلمه..

وحرك سيكاره الرفيع الى فمه، ثم نفث الدخان وقال:

- تعنين... إنك تفضلينها على القصر أنونا.

- طبعاً.. لقد أحببت المنطقة...

تمددت في كرسيها، ووضعت يديها خلف رأسها:

- ... ومنزلك يريح أكثر مما يريح القصر.. إن مجرد التفكير في العيش هناك...

وجلست ترتجف رغم حرارة الشمس ثم أردفت:

- أنت تحب فعلاً منزلك يا جوزف... أليس كذلك؟

- طبعاً أحبه. كما قلت لك، لقد راقبته وهو يتخذ شكله الحالي. كنت موجوداً في كل خطوة من خطوات بنائه، لتحويله من مجموعة ابنية آيلة للسقوط الى ما يعتبره الكثيرون اليوم منزلاً ساحراً.. لكن «البيت» يا أنونا يلزمه أكثر من موقع جميل وفرش أنيق ليصبح «بيتاً».. ثم أنني دائماً بعيد عن هنا.. ويبدو أنني أمضي وقتاً في الطائرات أكثر مما أمضيه في «برج الحمام».

رفع اصبعه ليستدعي الساقي.

مع هذا فقد أحست أنونا بشيء حميم بشأن الموقف. لكنها ذكرت نفسها بأن هذا وضع يجب أن يكون لذكرى ستدوم كثيراً، لكن يجب أن تستمتع به في الوقت الحاضر.. لذلك وبينما كانت تتجول في السوق تحمل أكواماً من نتاج الريف الطازج، لم تحاول اطلاقاً اخفاء سعادتها. وبدا أن جوزف مستعد للاستجابة لها... وفكرت، في حزن، إنها المرة الأولى التي يتمتعان بها معاً، بطريقة طبيعية.. آه ليتهما فقط...

قال لها:

ـ فلنذهب الى السيارة ولنضع هذه الاكوام من يدنا، حتى نقصد مكاناً لتناول الغداء.

ـ ألن تكون باميلا بانتظارنا؟

ـ لا.. قلت لها إننا سنتأخر. سنعود عبر طريق النهر.. ثمة شيء في الريف أريد أن أريك إياه أثناء وجودك هنا.

حتى عندما تذكرت أنها ليست سوى «طير مسافر» لم يفسد عليها متعتها اليوم. ذهبا الى مطعم صغير، يقبع خلف فناء... وهو عبارة عن بناء صغير يقع ضمن حديقة صغيرة تنتشر فيها الطاولات.

ـ أين ترغبين في الجلوس؟

ـ أوه جوزف، ألا يمكن أن نجلس في الخارج؟ يبدو الطقس بارداً تحت الشجر.

وهكذا كان، جلسا يصغيان الى حفيف أوراق الشجر المتحركة دائماً. كان ثلاثة من الطاولات فقط في الخارج

مشغولة، عكس غرفة الطعام المكتظة في الداخل. كسرت الصمت الذي لفهما، لكن دون توتر:

ـ شكراً لك على هذا المكان الجميل.

ـ من دواعي سروري.

تحدث إليها بلهجة هادئة فيها دعابة ومرح، وكأنه يشجعها على الاستمرار في مزاجها السعيد... فوضعت مرفقيها على الطاولة، واسندت ذقنها بيديها.

ـ أتأتي الى هنا عادة؟

ـ ليس دائماً. فقط عندما تتاح لي فرصة اصطحاب عارضة ازياء جميلة.

ـ أنا واثقة من أن الفرص متاحة دائماً لك... ماذا عن الفاتنة مارلين؟

ـ ماذا عنها؟ أتسألين إذا كان وصفك لها صحيحاً؟ أجل عزيزتي إنها فاتنة.

فلما ردّت عابسة: «أوه» مدّ يده يغطي يدها بينما راحت الأخرى تداعب وجهها.

ـ أتعلمين.. بدأت أعتقد... أنك تغارين.. قليلاً.

وازداد تمتعها بهذه اللعبة، فضاقت عيناها وهي تسأل:

ـ صحيح؟.. وماذا عن فيرونيكا، أتغار هي أيضاً منها؟

ـ لست أدري.. لكنها ليست بحاجة الى الغيرة.. ولا أنت كذلك.. يا حلوتي...

قبل أن تعترض أنونا، مدعية عدم الاحساس بالغيرة، جاء الساقي ومعه لائحة الطعام التي استلماها ثم أمضيا عدة دقائق

يبحثان عما يريدان تناوله ثم قال لها:

ـ هل أختار لك؟

فابعدت اللائحة من يدها وردت بسعادة:

ـ نعم.

إنه رجل يقرر كل شيء.. بينما.. ويا للأسف... أليكسي يستسلم دائماً... لأمه.. ولزوجته.

قال لها:

ـ يجب أن تتعلمي الايطالية، أليكسي سيرغب في هذا.

ـ إذن على أليكسي أن يعلم أن ليس كل ما يتمناه يدركه!

وبدا على جوزف الأسف الحقيقي:

ـ مسكين أليكسي.

لكن قبل أن تسأل غاضبة عما يعنيه، عاد الساقي بالطعام. وقبل أن يصب الطعام في طبقها سألها:

ـ سنيورا.. قليل من الفطائر المصنوعة من ثمار البحر؟

ـ نعم.. سي... غراتسي.

الابتسامة التي أطلقتها نحوه أربكت الساقي الشاب، الذي أوقع الملعقة من يده.. لكنه تابع عمله بارتباك.. ثم علق جوزف على ما جرى وهو يتناول السكين والشوكة ويبدأ بالاكل:

ـ كنت مخطئاً تلك الليلة.. من الواضح أن هناك خطراً كبيراً في خلع نظارتك عن عينيك!

وبسرعة، غير الموضوع مشيراً الى الطبق:

ـ هل أعجبك؟

ـ إنه لذيذ تماماً. لكن يبدو أنني أقول هذا كلما تناولت طبقاً جديداً. يبدو واضحاً أن للطعام الايطالي شهرته التي يستحقها.

ـ لكن الاحوال لم تعد كما كانت، صحيح أن هناك سواحاً.. ولكن..

ـ إنهم يقولون الشيء نفسه في انكلترا.. والطائرات تفرغ كل يوم أحمالها من السواح الاوروبيين.

ـ هذا صحيح.. لكن هذا الطبق ليس محلياً، لكن التالي سيكون.. آه.. ها قد وصل...

عاد الساقي يجر عربة عليها طبق فضي ضخم وبدأ يصب فيهما ما بدا لأنونا قطعاً من البط مع البطاطا واللوبياء الخضراء. حين أصبحا وحدهما، راقبها جوزف تقطع الجلد المحمر الشهي، وصولاً الى اللحم الطري، وابتسم وهو يلاحظها تمضغ بتلذذ واضح وقال:

ـ إنها تدعي «البط المكبوس» موجودة في كل البلاد لكنها مشهورة في منطقتنا. والآن أخبريني.. شيئاً يتعلق بكتابة رسائل. ألعلك اتصلت بوالدتك؟

ـ لا.. لم أتصل لأنني لا أعلم متى ستعود مع زوجها الى مركز عمله في نيويورك.

ـ الا تعتقدين أن عليك نسيان غضبك بشأن زواج أمك...

ـ لم أقل إنني غاضبة، ولست أدري لماذا تظن هذا.. أنا...

- قطعاً كنت غاضبة، ولست ألومك. كل ما أقوله، بسبب احساسك بالجرح، لا يجب أن. . .

فمسحت فمها بالمنديل الورقي، وأحست بفقدان الشهية.

- أنت من بين كل الناس يا جوزف، يجب أن لا تقدم هذه النصيحة. . . لقد انتظرت زمناً طويلاً لتنتقم من زوجة عمك، لذلك أنت الوحيد الذي يمكنه فهم موقفي. ثم. . أنت مخطئ في تقديرك. فلا أريد أن انتقم من أمي وزوجها!

حتى وهي تتكلم كانت تعرف أن كلامها غير صحيح، فازداد احمرار وجهها قليلاً. ثم هزت كتفيها وكأنها تسخر من نفسها، وابتسمت:

- أعتقد، أن مشكلتي بدأت منذ طفولتي حين ترسخت في ذهني صورة فارس الاحلام، الذي سيحملني معه هرباً. . أرجوك جوزف لا تدفعني الى ذكريات الطفولة.

رفعت عينيها إليه وهي لا تخفي دموعها. . فلاحظت تراجعه:

- هذا ما أكره فعله. . . هل أكلت كفاية؟

- أجل. . وتلذذت بالطعام حقاً. . . ومن المؤسف أن أياً منا لم يكن جائعاً.

كما وعدها، سلك طريق النهر خلال العودة، فسارت بهما السيارة بلطف عبر الطرقات الهادئة ونوافذ السيارة مفتوحة. انتزعت أنونا الوشاح عن شعرها ليتطاير في الهواء، ثم ردّت رأسها الى الخلف مغمضة العينين.

لكنها استيقظت بعد قليل وهي تحسّ بأن السيارة انحرفت

نحو طريق وعرة، والتفتت الى جوزف مستفسرة فابتسم لها:

- نكاد نصل الى النهر، وتساءلت عما إذا كنت ترغبين في الجلوس على ضفافه.

- رائع. . لا أعتقد أن هناك أفضل من هذا في مثل هذا اليوم الحار. . أتسمح باحضار البساط.

ولحقت به، لكنها لم تكن تشاهد الكثير من الحياة النباتية الخضراء حولها، بقدر ما كانت ترى جسده الطويل. ثم، وبينما كان يفرش البساط استدار ليواجهها مبتسماً، وكأنه، بثقة رهيبة، يفهم شيئاً من مخاوفها وريبتها.

شاهدته يخلع سترته، ويفك ربطة عنقه وقال لها بصوت يشوبه الضحك:

- لعلك لا تمانعين أنونا؟

- أمانع؟. . أمانع ماذا؟

لكن، بدا أنه نسي ما كان يقوله، إذ سرعان ما استلقى فوق البساط، مغمضاً عينيه، واضعاً قطعة عشب بين شفتيه. فاخذت تقاوم اندفاعاً مفاجئاً للدموع. . . وتطلعت الى الجانب الآخر من النهر. في وسط المرعى الواسع، ابقار بنية وبيضاء اللون، حول أعناقها أجراس تطن بنعومة، تحيط ببناء ليس إلا حظيرة لها.

أخيراً، نظرت الى جوزف فرأت أن صدره يعلو ويهبط بانتظام رتيب فعلمت أنه نائم. عندها وقفت تسير ببطء فوق العشب السميك لئلا توقظه، ثم سارت بخطى ثابتة نحو النهر وأخذت تحدق في مائه بمزاج عكر. ثم تناولت قطعة عشب

وضعتها بين أسنانها، كما فعل هو، وتابعت سيرها على ضفة النهر الى البعيد. كانت الحقول تمتد من جانب الطريق حتى النهر، بعضها مقسم باسلاك شائكة، والبعض بسياجات حجرية تنمو الى جانبها شجيرات شائكة تمتد فوقها أنواع من الزهور البرية. الحقول كلها مليئة بالقمح الناضج، الجاهز للحصاد. راحت تفكر في الحديث الذي تبادلته مع جوزف وقت الغداء. وفكرت في السنيورا بيري إستاليا، التي استطاعت أن تذهب الى أبعد حد من الجنون لتمنع زواجها من أليكسي، ولولا قبول جوزف المشاركة في المؤامرة... يا إلهي!.. ووضعت يدها على رأسها لهول المؤامرة.. حينها، لاحظت أن ضفة النهر قد ضاقت ولم يعد هناك مكان للسير عليها، فعادت أدراجها.

توقفت في منتصف الطريق تستند الى جذع شجرة، مسرورة ببرودة ظلها، ومسرورة بتحررها المؤقت من أفكارها.. الحقل الممتد أمامها كان منقطاً ببقع حمراء حيث غزت نباتات الخشخاش المحصول، مضيفة لوناً أحمر أظهر بوضوح صارخ لون القمح الأخضر المائج. ودون وعي منها توجهت نحو الزهور الحمراء وامتدت يدها فقطفت إحداها، لكن السائل اللزج على اصابعها لفت انتباهها لما تفعله. فجأة جعلتها تكتكة غريبة ترفع عينيها عن الزهرة التي في يدها فإذا بها ترى جوزف يتقدم نحوها والكاميرا في يده:

ـ فتاة الخشخاش... كنت أتساءل أين ذهبت.

أشاحت أنونا وجهها عنه وهي لا تثق بما سترد ثم حاولت أن تُظهر صوتها هادئاً:

ـ أ.. أليست أجمل بقعة شاهدتها أبداً؟ تذكرني بصورة رأيتها من قبل، كان فيها فتاة تسير في الحقل، وحولها زهر الخشخاش الأحمر...

قبل أن تكمل، تحركت ذراعه فلف خصرها، وقرّبها منه. أجفلت وخافت، واتسعت عيناها، خاصة وأن ما شاهدته في عينيه جعلها تكتم أنفاسها. ثم لم تلبث أن تسللت يده الى الاعلى تضغط جسدها إليه بقوة وتملك... مما جعلها ترتجف.

استسلمت له للحظات وهي في حيرة من عواطفها، ثم علمت أن اللحظات هذه انتهت حينما بدأت اشارات تحذير تدق طبول الخطر في ذهنها. لكن قلبها كان يضرب بين ضلوعها في محاولة للتحرّر من أفكارها والاستسلام لضربات قلبه المماثلة.. فعلمت عندها، أن لا شيء اختبرته مع أليكسي يشبه ما تمر به الآن. عقدت يديها خلف عنق جوزف... وأحست بقوة تجاوبه مع تجاوبها... مسكين يا أليكسي!

لم تكن لتعتقد أن اسمه انسل من بين شفتيها عن غير قصد إلا عندما أبعدها عنه جوزف، وعيناه تتطايران شرراً وغضباً.. ولم تكن لتفهم السبب. لكنه سألها حانقاً:

ـ أليكسي؟ كيف تتلفظين باسمه وأنت بين ذراعي؟

ترنحت وقد حُرمت من دفء ذراعيه فأسندت نفسها الى جذع الشجرة، تكاد تقع أرضاً مغمياً عليها، وردت بصوت كالنحيب:

ـ لا... أنا.. جوزف...

ـ لا.. تباً! أنا أرفض أن أكون شخصاً بديلاً في الحب ولو كان هذا الشخص أليكسي.

طافت عيناه فيها ببرود واحتقار:

ـ أقترح عليك أن نلتقي عند السيارة بعد بضع دقائق، ويجب أن تنسى ما حصل الآن.

وفي اللحظة التالية كان يسير بخطوات واسعة، والكاميرا التي كان يستخدمها معلقة على غصن شجرة.. مكروهة... منسية... مثلها تماماً.

■ ■ ■

٨ ـ أنامل وياقوت

تمت رحلة العودة الى المنزل بصمت مطبق. قاد السيارة بغضب مكبوت كان يظهر واضحاً عندما ينعطف بالسيارة أو عندما تندفع ثورة من الغبار كلما مرّا بطريق ترابية.

أخيراً دخلا فناء المنزل، فنظرت إليه وهو يوقف المحرك، وقال لها دون أن ينظر إليها، بصوت بارد كالثلج.

ـ سأدخل الاغراض الى المطبخ.. وسترتبها باميلا فيما بعد. لا شك في أنك متعبة.. وربما تودين الصعود الى غرفتك.

تصاعد الغضب في نفسها بسبب الطريقة المهينة التي كلمها بها.. حتى ولو كان ما يقوله صحيحاً، فلن تعترف بهذا له. فخرجت من السيارة وصفقت الباب خلفها بقوة لتظهر ما تحس به. ما كادت تصل الى الردهة حتى كان وراءها يحمل أغراضاً كثيرة، مع ذلك توقف وقال:

ـ أوه.. قد أضطر للخروج الليلة.. فأرجو أن لا تمانعي في تناول الطعام وحدك.. ستعدّ لك باميلا شيئاً.

ـ شكراً لك.. أنا قادرة على اعداد وجبة طعامي لو أردت شيئاً.. هل يحق لي أن اسألك الى أين تريد الذهاب؟ أم أن

هذا السؤال تعوزه اللياقة؟

ـ وماذا يفترض أن يعني كلامك هذا؟

ـ أوه.. ظننتك فقط ذاهباً لزيارة ڤيرونيكا. أنا على يقين من أنها ستفهمك عندما تشرح لها كيف هي الاوضاع في بيتك... وأنا موقنة أيضاً من أنها لن تشعر بحرج في أن تكون بديلة... أليست هذه هي الكلمة التي استخدمتها؟

وبجهد يبعث على الاعجاب تمكنت من انتزاع ابتسامة من شفتيها:

ـ في الواقع، ستفعل أي شيء لأجلك، كما أعتقد، وسترحب بهذه الفرصة.

ثم استجمعت ما تبقى من كرامتها المشتتة، وسارت ببطء نحو غرفتها. وهناك.. هجرتها كل سيطرة على نفسها، فرمت نفسها فوق السرير بعاصفة صاخبة من البكاء استمرت حتى الارهاق. عدة مرات ظنت أنها تسمع وقع خطوات جوزف، وتعتقد أنه جاء ليصالحها.. لكن كل ما كانت تسمعه هو صوت ضربات قلبها التي راحت تعطي صدى غامضاً وكأنها أصوات منزل قديم مهجور... سببها موجة غير متوقعة من الحب... وأخرى سببها النفور القاسي.

هكذا إذن.. لقد اعترفت أخيراً.. إنها تحبه. هذا الشوق والتوق الناريان، والبؤس، والعاطفة العاصفة، لا يمكن أن تكون سوى الحب... وكلها متعلقة بجوزف.. ولا شأن لأليكسي بها!

توجهت أنونا الى الحمام وأخذت تخلع ملابسها، بعد

لحظات كانت تقف تحت الدوش تتمنى لو تجد طريقة تخفف بها آلامها كما تخفف المياه الحارة التعب عن جسدها المرهق... وبعد نصف ساعة كانت تنسلّ عارية بين الشراشف البيضاء النظيفة وقد بدا لها أنه يستحيل عليها أن تسعى الى النوم. لكنها بعد قليل، أصبح تنفسها عميقاً.. طويلاً.. وطواها النوم، ليبعدها عن عذاب الحياة الى نعمة السلوان.

كان الوقت ظلاماً عندما صحت، على صوت باميلا اللطيف:

ـ سنيورا.. أنت بخير؟

تمطت أنونا في الفراش:

ـ أجل باميلا.. لقد نمت نوماً رائعاً!

ـ آه.. قال السنيور جوزف إنك كنت نائمة بهدوء وسلام لذا لم يشأ ازعاجك.

ـ جوزف قال هذا؟ متى كان هذا باميلا؟

ـ أوه.. منذ أكثر من ساعة... كنت أود معرفة ما إذا كنت ستتعشين أو لا، وطلبت منه الصعود ليسألك..

ـ ألم يقل لك إنني لو احتجت شيئاً فسأعدّه بنفسي؟ لقد قلت له ذلك.

ـ بلى قال لي.. ولكن...

ـ لا بأس باميلا.. اذهبي الى شقتك.. لقد تناولنا غداء رائعاً، وإذا جعت فسأعد بعض البيض.. اذهبي واستريحي الليلة باميلا.

ـ أنت واثقة سنيورا؟

ـ طبعاً، كما أن عليك ألا تتعبي نفسك كثيراً.. أعني عليك أن تريحي نفسك.

ـ حسن جداً سنيورا.. غراتسي.

ـ قبل أن تذهبي باميلا... اخبريني ماذا يمكن أن أفعل في الغد. أيمكن أن أحضّر أي صنف من الطعام؟

ـ أوه.. لا.. السنيور طلب اللحم وسلقته، وفي الغد سأعد السلطة والحلوى، كما أن عندنا كل أنواع الجبن اللذيذ الذي اشتريتماه من السوق. لا عليك سيدتي فشقيقتي ستساعدني، وسيكون بيدرو معنا في المساء.. لا سيدتي.. تمتعي أنت براحتك الليلة.. فثمة عمل للجميع غداً.

لم تحتج أنونا إلا الى بضع دقائق لتقطع الطماطم والفلفل الاخضر الحلو والبصل لصنع السلطة، بعد ذلك خفقت بيضتين ودلقتهما فوق الزبدة التي أذابتها النار، ثم وضعت الوجبة على صينية وخرجت لتأكلها قرب البركة.

لكن، كان من الصعب عليها أن تتجنب التفكير في أن الوقت قد أزف لبدء العمل... بل من الواضح لها الآن أن من المستحيل الجلوس هكذا بانتظار وصول أليكسي لانقاذها.. لكنها باتت الآن واثقة من أن لا فائدة أصلاً.. من مجيئه. لقد تأخر الوقت كثيراً. وإذا كانت ستلتقي به، فيجب أن يكون هذا في مكان بعيد عن هنا.

ما أن تنتهي الحفلة، حتى تعود الى لندن وتنتظر هناك. جوزف أخبرها، أن زواجاً كزواجها يسهل فسخه، بسرعة. وبعد أن تفسخه ستعود وتزج نفسها في زحمة العمل، أملاً في نسيان

لقائها بعائلة تدعى بيري إستاليا!

تنهدت وهي تقارن شقتها في لندن، التي تسكن فيها مع أنا، بهذا المنزل الريفي الجميل عند سفوح الجبال الايطالية، الذي تعيش فيه وإن مؤقتاً، مع رجل هو زوجها وليس زوجها في آن معاً.

عادت الى الداخل وهي تنظر الى نوافذ شقة باميلا، التي بدا منها النور الاصفر مرحّباً. عندئذٍ تصورت قناعة هذين الزوجين.

وما أن التقطت أذناها صوت السيارة تصعد التل، حتى تراجعت الى الظلال. لكن الصوت وصل الى أعلى مداه ثم أخذ يخف تدريجياً حتى اختفى.

كيف لك أن تكوني بلهاء، هكذا؟ ولم تجد الرد، فسارعت لتدخل المنزل وتقفل الباب وراءها.. مصممة على التزام خطتها.

استلقت على الفراش في ظلمة غرفتها قلقة تتقلب بحثاً عن النوم الذي يراوغها ويتهرب منها وبقيت على هذه الحالة الى أن جلست شاهقة تشعل النور.. إذا لم تستطع النوم فلم لا تقرأ؟ لفت نفسها بالروب ونزلت بسرعة الى حيث شاهدت بضع مجلات فيها آخر الازياء الإيطالية.

لكن، ما إن فتحت باب غرفة الجلوس حتى وقفت مترددة، فالنور ينبعث من مكان ما.. ليس من أي مكان في الغرفة، بل من مصدر علوي منها. طبعاً.. لا بد أن جوزف قد عاد وهو الآن في عليته.. أصغت الى أي صوت، لكنها قررت بعد قليل

أنه لم يعد بعد.. وإذا بها مخطئة.. لكن أكانت يوماً على صواب؟

تسللت بحذر الى الغرفة فوصلت بصمت الى الطاولة حيث وجدت المجلات التي تريدها. أبقت عينيها بعيدتين عن الطابق العلوي في الغرفة.. لأنها إن لمحته لمحة واحدة فستتذكر تلك المشاعر كلها التي تحاول جاهدة اخمادها. فإذا بشوقها يخذلها، لأنها ما كادت تبدأ باقفال الباب وراءها حتى ارتفعت عينيها رغماً عنها الى فوق.. الى حيث الضوء.. لكنها لم ترَ شيئاً. لا شيء، سوى ظل جانبي له فوق الجدار، الرأس الى الوراء، كأنه مستند الى الكرسي، بينما كانت تنظر شاهدت ظل يده التي تحمل السيكار وتضعه بين شفتيه. ودون أن تكمل إغلاق الباب هربت الى غرفة نومها ونامت ترتجف بين الاغطية.

في اليوم التالي كان العمل قائماً قاعداً.. فقد مرت دقائق الفطور المضطربة بسهولة، لأنها لم ترَ جوزف إلا عندما دخلت غرفة الطعام حيث وجدته وباميلا غارقين في نقاش بشأن ترتيبات السهرة. ولم ينظر إليها كثيراً

ـ نمت جيداً؟ (سألها بعد أن غادرت باميلا الغرفة).

ـ نعم.. وأنت؟

ـ أنا.. أنام دائماً جيداً.

لم تسأله أنونا إذا كان هذا يعني التدخين في الواحدة والنصف صباحاً، وسرعان ما طفق يتحدث عما سيفعلانه الليلة.

ـ سنتناول المرطبات على الشرفة الكبيرة وبعدها تعد المائدة

في غرفة الطعام. سأترك هذا الامر لك ولباميلا.. إنها قادرة على الرد على كل ما تريدين معرفته. وأريد منك ترتيب الزهور. فترتيب الأزهار من يدك يبدو دائماً مميزاً.. ونأتي الآن الى ثيابك التي على ما أعتقد أنها الليلة يجب أن تكون مميزة... أوه.. على فكرة: أنا سعيد بعودة شعرك الى طبيعته.

وأقفل الباب وراءه قبل أن تتمكن من الرد.

خلال سائر النهار، لم تجد وقتاً كافياً لتنظر في المرآة. أو للتفكير في التأثير الذي ستتركه على أصدقاء جوزف، الذين هم دون شك ينتظرون لقاء الفتاة الرثة الثياب التي وصفتها لهم فيرونيكا. لم يكن لديها أي وقت لأي شيء في ذروة العمل وضغط التحضير لاستقبال الضيوف الذين سيصلون ذلك المساء.

لكن الساعات مرّت. فساد الجميع الذعر لأن الضيوف على وشك الوصول والعمل لمّا ينته بعد.. وأخيراً أصبح كل شيء جاهزاً. حتى أن أنونا وباميلا وشقيقتها أليكسندرا، تمكنّ من الجلوس الى طاولة المطبخ لاحتساء فنجان من الشاي، وكان أمامهن وقت طويل بعد أن انضم إليهن جوزف.

بينما كانت تصعد الى غرفتها لتستعد لحق بها الى أسفل السلم وناداها بصوت عميق:

ـ أنونا.

فتوقفت لكنه صمت ثم قال:

ـ لا شيء!

عندها أحست بأن المبادرة أصبحت في يدها:

ـ كنت ستقول شيئاً عما يجب أن ارتديه، أليس كذلك؟

ـ أنت ذكية أنونا. تبدين وكأنك زوجة مضى عليها زمن طويل وهي متزوجة حتى باتت تعرف جيداً ما يريده زوجها. ربما كنت أرغب في قول هذا، لكن بما أنك تفهمين رغباتي جيداً، فلا داعي الى أن أقول شيئاً.

وكأنما قوة خارجة عن ارادتها قادتها وجعلتها تميل من فوق الدرج لتلثم خده. ثم لم تلبث أن قالت بصوت ناعم حنون:

ـ إذن.. هل لي أن أطلب منك شيئاً جوزف تفعله لأجلي؟ أرجوك احلق لحيتك، فثمة شيء واحد لا أطيقه.. وهو الرقص مع رجل ذقنه كوسادة من المسامير!

ودون أن تعيد النظر إليه ركضت الى فوق متجاهلة القهقهات التي تعالت منه.

لكن عندما التقيا ثانية، لم يكن أي منهما في مزاج يسمح له بالمزاح الخبيث، فكل منهما كان يعي تماماً وجود الآخر وكان غير مستعد للمخاطرة باطلاق مشاعره المكبوتة.

ارتدت أنونا ثوباً كان قد صممه بروميرو لزبونة ثرية ولكنها لنزوة ما باعته إليها بسعر الكلفة.

كان الثوب ذا ياقة مستديرة واسعة تكشف الصدر والكتفين، مزيناً بحليّ اصطناعية براقة، وقطع نقدية ذهبية مثبتة على دائرة الياقة، التي تتدلى منها شرائط طويلة تصل الى الكاحلين. أما لونه الزهري الفاتح، فجذب الاهتمام الى لون بشرتها العسلية.

لم تكن أنونا قد اهتمت بمظهرها هكذا من قبل، فشعرها اللماع مضموم الى الوراء، مربوط دون عناية عند أسفل عنقها،

خصلاته تتدلى على وجهها.. وحول معصمها اسوارة براقة وفي قدميها حذاء ذهبي عالي الكعبين.

حدقا الى بعضهما بعضاً بذهول، فأناقته كانت تقارب أناقتها، ثم أحست بيدها ترتفع، وبشفتيه تطبعان قبلة عليها قبل أن تصل الى وجهه الحليق.

ـ لعلي يا حلوتي أرضيتك نصف ما أرضيتني. تعالي معي أنونا.. لدي شيء لك.

قادها بالحاح بدا أن له صلة بدنو وصول الضيوف وأدخلها الى مكتبته الصغيرة التي شاهدتها مرة واحدة.. داخل الغرفة وقفت تراقبه وهو يفتح جارور طاولة أثرية ويخرج منها علبة صغيرة ثم يعود إليها ليعطيها لها.

ـ ما هذا؟

ـ افتحيها أنونا.

الخاتم الذي ظهر في داخلها كان يلمع بفخامة وبجمال. في وسطه ياقوتة زرقاء... جعلها جماله الفتان رغماً عنها تشهق اعجاباً:

ـ إنه رائع!

ـ إذن دعيني أضعه في اصبعك.

فسحبت يدها منه:

ـ لا.

ـ يجب أن تضعيه أنونا. فمن الطبيعي أن ترتدي الزوجة خاتم زواج.. وأنا مصرّ على هذا.

بلطف فتح أناملها التي لم تعد تقاوم، ودسّ الخاتم في

اصبعها. لكنه عندما رفع يدها الى شفتيه للمرة الثانية ارتجفت:
ـ لونه يطابق كل المطابقة لون عينيك.

■ ■ ■

٩ ـ خارج هذا العالم

قبل أن يكون أمامهما أي وقت للتفكير في شأن آخر، أحسّا بأن أحد الضيوف قد وصل.

الانطباع الذي ارتسم في ذهن أنونا هو أن أصدقاء جوزف جميعهم من الأثرياء الذين يعتبرون العالم كله وطناً لهم، يطوفون العالم، ويتكلمون معظم اللغات مثله تماماً. وكان أن قُدمت الى رجال ترافقهم زوجات جميلات يتحدثن عن زياراتهن لمعظم عواصم العالم.

قال لها رجل قصير أسمر، تعتقد أن اسمه أنطونيو.

ـ أخبرينا عنك أنونا. لقد فوجئنا عندما علمنا أن جوزف اتخَذ لنفسه زوجة. وأنت فعلاً مفاجأة رائعة.. كنت امرأة مختلفة.. ما رأيك ليزا؟

التفتت الى زوجته، ذات القد الصغير والشعر الأشقر، فابتسمت.

ـ لا أستطيع قول شيء. أعتقد أنني أشاهد الآن شيئاً يختلف تماماً عما وصفته ڤيرونيكا.

لاحظت أنونا تبادل النظرات بين النساء، وأحست بالامتنان عندما وصل جوزف ليضع ذراعه على كتفيها ويبتسم لها فقال له

أنطونيو وعيناه على أنونا:

- كنت اسأل أنونا لماذا كنت تخبئها عنا. وهذا ليس بالعدل لنا.

فرد جوزف:

- وهذا ما كان يعجبني في الفكرة.

وسألت امرأة أخرى.

- لكن أين التقيتما؟ هنا أم في لندن؟

-. الامر معقد قليلاً، لكن الواقع أننا التقينا هنا، ربما في يوم من الايام سنشعر بأننا راغبان في قصها عليكم، أما الآن فنفضل الاحتفاظ بها لأنفسنا.

- يا للرومانسية!

وقررت أنونا أن تشارك في الحديث، وهذا ما أعطاها الفرصة لتنظر الى وجه جوزف بمحبة:

- كانت أجمل قصة رومانسية. فلقاؤنا كان غريباً غير متوقع.

توافد دفعة جديدة من الضيوف سمح لها بترك هذه المجموعة للقاء أشخاص مسنين ارشدتهم أليكسندرا عبر الباب. قدمها جوزف بكبرياء، وأناقة، إليهم شارحاً بعناية من يكون كلّ منهم: السنيور بامبانيو والسيدة غورماني والسيد دو نسيل الطبيب البيطري في المنطقة كلها.. وبما أنهم جميعاً لا يتكلمون الانكليزية فقد قنعت أنونا معهم بحديث بسيط، مستخدمة الكلمات التي التقطتها بالتدريج من باميلا، وبهذا جعلتهم يحسون بالترحاب. وعلمت أنهم، لكبر سنهم وأزيائهم

المحافظة، قد يحسون بالارتباك مع من هم أصغر سناً من الضيوف فعاملتهم بحرارة زائدة. وأحست بأن لدى جوزف التفكير نفسه فارتاحت عندما بدأ يترجم الحديث بينها وبينهم.

- إنهم يقدمون التهنئة لي أنونا على حسن اختياري للعروسة.. ويفهمون تماماً لماذا أخذت فتاة انكليزية.

فاحمر وجهها خجلاً وهي تحاول جهدها تركيب جملة إيطالية مفيدة:

- غراتسي، سنيورا أي سنيوري.. وأنا كذلك أتمتع باقامتي في إيطاليا.

- أحسنت.. في صحتك سنيورا، وأنت جوزف.

وسرعان ما وجدت نفسها عاجزة عن الخوض في حديث طويل مع الضيوف الذين كانوا يتدفقون جموعاً إثر جموع، وامتلأ الجو بالحديث والضحك. كان آخر من وصل، فيرونيكا، التي يرافقها رجل قصير سمين متوسط العمر.

كانت أنونا تقف قرب الابواب الزجاجية التي تقود الى الشرفة عندما دخلا غرفة الجلوس، فتقدمت لتستقبلها بابتسامة، تمد يدها مرحبة. لكن الفتاة على ما يبدو كانت تنظر الى الوراء حيث كان جوزف يتقدم أيضاً، بدا أن فيرونيكا لم تتعرف الى أنونا.. إذ لم يكن في عينيها الشاحبتين أي ردة فعل، بل كانت تركز نظرها على الرجل الطويل. وتصيح بابتسامة سعيدة:

- جوزف!

إلا أنها لاحظته يضع يده تحت مرفق أنونا، فتحركت عيناها نحوها، وتعبير عدم الفهم يرتسم على وجهها. نظرت ثانية الى

جوزف، ومن ثمّ الى أنونا. . قبل أن تفهم أخيراً، لكنها سرعان ما أخفت احباطها وغضبها بابتسامة مصطنعة.

ـ واو أنونا! ما أروعك الليلة عزيزتي!

فأجابت صادقة:

ـ وأنت أيضاً فيرونيكا. . إن ثوبك لرائع.

ـ شكراً لك، لقد أوصيت عليه في باريس منذ أشهر قليلة.

ثم تذكرت أنها كانت برفقة أحدهم، فنظرت حولها فإذا بها تجده يشارك جوزف حديثاً ودياً:

ـ بيبي هذه هي السيدة بيري إستاليا الجديدة.

ـ تشرفنا سنيورا. . أنت لست كالسيدة التي توقعت رؤيتها.

والتفت الى فيرونيكا:

ـ الصورة التي رسمتها عنها عزيزتي جعلتني أظنها مختلفة.

هزت فيرونيكا كتفيها دليل عدم الاكتراث، وراحت تنقل نظرها بين الحضور، في حين أن عيني أنونا التقتا بعيني جوزف، فإذا بها ترى فيهما نوعاً من التسلية وكأنه يذكر يوم التقت المرأتان.

بدت الحفلة ناجحة جداً والدليل على ذلك الضحك والصخب. كانت أنونا دائماً محاطة بالضيوف والمعجبين من الرجال، ولم تكن تحس بالراحة إلا بوجود جوزف قربها. . فعندما كان يضع يده على ذراعها ليقدمها الى المدعوين كان انزعاجها كله يتلاشى.

انشغلت أنونا جداً بالاشراف على المائدة، ومراقبة الجميع لمعرفة ما إذا نالوا ما يريدونه أم لا. وقد نسيت في غمرة

اهتمامها بهم جوعها الى أن ظهر جوزف قربها يمسك صحناً من اللحم المقطع شرائح مع السلطة:

ـ تعالي. . أنت مرهقة. . وجدت لك مكاناً رائعاً تأكلين فيه بهدوء.

ـ لكن ألن. . . ألن يتوقع ضيوفك أن نكون معهم؟

ـ أظنهم كلهم سعداء الآن. . وكل منهم مع أصدقائه، يأكلون ويشربون بمرح كاف. . . فهيا بنا أنونا.

ورافقها الى مقعد صغير في آخر قاعة الطعام.

كان واضحاً أنه رتب الامور قبل أن يأتي بها. فعلى الطاولة كأسان فيهما عصير الفاكهة الطازجة. . فجلست على الكرسي تنظر إليه يقدم لها الكأس قبل أن يتناول كأسه.

ـ هنيئاً أنونا!

فردت هامسة بصوت يعكس الحزن، وكأنها تريد البكاء عندما يسمح لها الوقت بذلك.

ـ ولك أيضاً جوزف.

طفقا يتحدثان قليلاً أثناء تناولهما الطعام، وهما على وئام وكأنهما شخصان يرتاحان معاً خلال حفلة ناجحة. بعد أن انهت أنونا ما في طبقها تناوله من أمامها وغاب بضع دقائق عاد بعدها بقطعتين من حلوى التوت البري وبطبق من الجبن الفاخر.

ـ الليلة، سآكل على الطريقة الانكليزية، فأتناول الفاكهة أولاً، ثم الجبن.

وراح يعاملها كأفضل ما يعامل الزوج زوجته الحبيبة. فأحست بالرضى لركود عاطفتها قليلاً، ولعدم محاولته تحريكها

من جديد.. في الوقت الحاضر، هي قانعة بروعة جلوسها معه، تتمتع هادئة بصحبته، وهما يتبادلان حديثاً ليس بذي أهمية..

الاحساس بأن سعادة هذه الامسية يجب أن تدوم ذكراها في نفسها الى وقت طويل، جعلها تشعر بالحنين وكأنها رحلت بالفعل.

بعد أن انتهيا مد لها يده وهو ينظر إليها بتعبير جعلها تتساءل، للحظة قصيرة عما إذا كان هو كذلك يتمتع بهذا الوقت ويعرف بأنه زائل... لكنه ابتسم لها، وأمسكها لحظات من أطراف أصابع يديها.

ـ آن الوقت للعودة الى واجباتنا.

ولف ذراعه حول خصرها بعد أن اخذت الموسيقى تصدح عبر مكبرات الصوت:

ـ أتسمحين بأن نرقص، إذا لم نفتتح الرقص، فلن يرقص أحد من المدعوين.

لكن قبل أن يتحركا، سمعا صوت قرقعة المعدن فوق المعدن، والتفتا فإذا بالسيد دوتسيل يقف في منتصف الغرفة.. وكأنه ينوي القاء خطاب تهنئة. فوقفت أنونا تدير نظرها الى المدعوين، فرأتهم يضحكون. عندها شعرت بالخجل فاحمرت وجنتاها برغم أنها لم تفهم إلا القليل مما يقول. أما فيرونيكا فجلست وذراع بيبي خلف كتفيها، غير مبتسمة بل تنظر عيناها الى جوزف بجوع. ثم، بعد أن أحست بأنونا تنظر إليها، تحركت عيناها الشاخصتان عنه، لكن لتحدق في أنونا بغيرة

واضحة. وأحست أنونا بيد على كتفيها تطمئنها:

ـ اهدئي حبيبتي.

ـ شكراً لك جوزف.

ثم تناولت كأساً من الكأسين الفضيتين اللتين قدمهما بيدرو لها ولجوزف، فرفعت كأسها تجاوباً:

ـ لك يا أنونا.

جعلت همسته عينيها تمتلئان دمعاً، ولكنه أمام خيبة أملها أخرج منديلاً من جيبه فمسح به دمعها بعناية، وسط هتاف الحشد وتصفيقهم وضحكهم. وعادت الموسيقى تصدح، وسمحت لجوزف بأن يقودها الى الرقص.

بينما يداه تمسكانها وهو يدور بها على أنغام الفالس الحالمة كانت عيناها شاخصتين إليه، غير عابئة بأنه قادر على تفسير التعبير المطل منهما. وإذا كان آخرون قد انضموا إليهما، فلا هي ولا هو لاحظا هذا، ففي حركة جسديهما المتناسقة لذة لم تجدها من قبل في رقصة الفالس مع أي انسان آخر.

كانا غارقين في نشوتهما عندما قاطعهما أنطونيو يطالب بالرقص مع العروس.. وفي الوقت نفسه التفت جوزف مستجيباً الى اليد الملحة التي كانت تشد كمه. بعد ذلك راحت أنونا تنتقل من يد الى يد. وكان جوزف أيضاً يراقص النساء من قبيل الواجب.

هذا كان الى أن راقص فيرونيكا! ومع أن أنونا حاولت جاهدة عدم الانتباه إليهما إلا أنها لم تستطع إلا أن تلاحظ أنه أمضى وقتاً طويلاً معها يراقصها، وشاهدت رأسه ينخفض

ليستمع الى ما كانت تهمس به، ووجهها المفعم بالحيوية مرتفع نحوه، وكأنها تتوسل. لكن لم تلبث أن لمحت أنونا الرجل الذي حضر برفقة ڤيرونيكا فرأته ينظر إليهما بانفعال وهما يدوران في حلبة الرقص.

تقدمت أنونا منه، بعد أن اعتذرت ممن كانت تراقصه مدعية التعب وقالت له:

ـ ألا ترغب في الرقص؟

فابتسم:

ـ بل أرغب. لكن، ويا للأسف، ليس لدي احساس بالايقاع هذا ما تقوله لي ڤيرونيكا. والحقيقة سنيورا بيري إستاليا، أنني عندما كنت شاباً لم يكن لدي الوقت لتعلم الرقص، كنت فقيراً ومضطراً الى شق طريقي في الحياة.. أما الآن، فأظن الوقت قد فات على البدء.

أحست أنونا بعطف مفاجىء تجاه الرجل الذي بدا في غير مكانه الصحيح بين هذا الجمع. فقالت بحماس:

ـ بالطبع لم يفتك الوقت بعد. أتود مراقصتي؟ فعلى هذا النغم الذي يتعالى الآن، لا يهم ما تفعل، بقدر ما يهم أن تنقل قدماً إثر قدم.. عندها لن يلاحظك أحد.

فضحك:

ـ حسناً.. إذا كنت لطيفة معي سنيورا.

لكن، ما إن خطوا فوق الباحة، حتى كان جوزف قد ترك ڤيرونيكا، التي لم تكن سعيدة بهذا، فتقدمت منهما، ووقفت في طريقهما، ناظرة الى أنونا شذراً قبل أن تنقل نظرتها الغاضبة

الى بيبي.

ـ أظن أن علينا الذهاب الآن بيبي.. لقد تأخرنا، وأشعر بالتعب. شكراً لك على هذه الامسية الجميلة سنيورا.

فأجابتها أنونا دون أن تظهر انزعاجها من فظاظة المرأة:

ـ أنا سعيدة بحضوركما.

انحنى بيبي فوق يد أنونا:

ـ وداعاً سيدتي. يجب أن تنتظر رقصتنا فرصة ثانية، وربما هذا أفضل، لك!

بعد هذا، بدأت فلول الجمع تخف، حتى خرج منها آخر الوفود وهما أول من وصل الى السهرة: أنطونيو وزوجته ليزا.

دخلت أنونا المطبخ، فدهشت وقد بدا لها وكأن شيئاً لم يحدث. فكل الصحون والاطباق والكؤوس مغسولة وموضوعة في مكانها. التفت بيدرو الواقف أمام المغسلة حيث كان ينهي تنظيف آخر الصحون تحت صنبور الماء، وابتسم لها:

ـ أوه... بيدرو.. شكراً لك.

والتفتت الى جوزف الذي لحق بها.

ـ أيمكن أن تخبر بيدرو عن مدى شكري له؟ كنت سأقترح أن تقول لهما إن لا حاجة الى أن يعملا غداً، فهما يستحقان فرصة بعد عمل اليوم. أما بشأن تنظيف البيت فأنا سأقوم به وكذلك الحال بالنسبة للطعام.

نظرت عيناه السوداوان إليها متساءلتين بعجب:

ـ أواثقة أنت؟

ثم، بعد أن أكدت له، سمعته يشرح لبيدرو ما تقترحه وإذا

بالسعادة تطفح واضحة من خلال نبرة صوت بيدرو.. بعد ذلك خرجت من المطبخ سعيدة، ثم توقفت في الردهة قبل أن تتبع صوت الموسيقى الذي ما يزال مسموعاً.

كانت تقف عند النافذة حين سمعت الباب ينفتح وخطوات فوق أرض الغرفة تقترب فالتفتت متوجهة الى «الستيريو»:

ـ كيف توقف هذا؟

ـ اتركي هذا الآن.. ولنجلس، لا بد أنك متعبة أنونا.

نظرت إليه فإذا على وجهه تعبير غريب، ليس فيه لمحة ابتسام، وإذا به يمسك يدها برقة متناهية ليقودها الى حيث يجلسان.

لكن بدلاً من أن يجلسا، استمر في الامساك بيدها، ولف يده الأخرى على خصرها ثم راح يراقصها على نغم الموسيقى. رفعت نظرها إليه لا تفكر إلا في مدى حبها له، ونسيت في غمرة ذلك نفوره منها وازدراءه في الامس، ونسيت كذلك ما عزمت عليه من قطع علاقتهما في أسرع وقت ممكن.

فجأة ودون أن يدركا السبب، كانا يقفان معاً، يداه على خصرها، ويداها حول عنقه... وفي ذهنها فكرة واحدة، وفي جسدها شوق واحد، فقد تلاشى فجأة من تفكيرها كل تعقل، كل حذر بل كل فكرة عن حماية نفسها واحترامها ولم يبق إلا اندفاع قلبها.

في البداية ورغم ارتجاف شفتيها لم تستجب.. بل أغمضت عينيها ومالت نحوه تتكىء الى جسده، تتمتم اسمه، تتلمس مؤخرة عنقه باصبع واحد. ثم... انفجرت النيران

المتأججة المكتومة بينهما فارتفعت ألسنة لهيبها وهو يشد جسدها الذائب الى جسده الجائع.

أبعدها قليلاً عنه، يغطي وجنتيها بيديه: «أنونا»! ثم راح يتفرس في وجهها بنظرة جعلتها ترتجف. ولم يعد لديها شك في إنه يسألها سؤالاً.. ويسعى الى رد عينيها اللتين أثقلتهما الرغبة والاستجابة. وما هي إلا لحظة حتى انفرجت شفتاها بنعومة، تدعوانه..

أبهجتها ضحكة الانتصار السعيدة التي دوت في أذنيها قبل أن يرفعها عن الارض، ويحملها خارج الغرفة.

■ ■ ■

١٠ ـ البداية

استلقت أنونا في غرفة النوم التي يغسلها نور القمر، تصغي الى أنفاس جوزف الرتيبة. ابتسمت بفرح كامل، ورضى.. ثم اضجعت على جانبها لترى وجهه الذي بدا مسترخياً في نومه... رفعت نفسها على مرفقها، وقبلت برقة جفنيه المغمضين.

فتمتم باسمها، وفتح عينيه لينظر إليها بكسل مبتسماً، ثم مد يده نحوها يلمس وجهها قليلاً، قبل أن تنزلق من جديد وقد غالبه النعاس ثانية.. عندها تدفقت دموع السعادة وهي تتذكر الفرح الغامر الذي غلب عليها حواسها.

بعد أن وافقت عيونهما البارحة تلاشى كل تردد. فالنار التي حرقتها وجدت لها مثيلاً عنده، لكنه وقد أدرك عدم خبرتها، أظهر معها لطفاً ورقة لا نظير لهما.

تنهدت أنونا، ثم أغمضت عينيها، تسمح للنوم بأن يغلبها. فرأت في منامها الآن دون رعب، أن الرجل الذي غزا حلمها لم يعد غريباً عنها.. لأنه الرجل الذي أصبح زوجها، حقيقة.

كانت الغرفة غارقة في نور الشمس عندما هبت من نومها. في البداية تنهدت برضى... ثم أدارت وجهها فوق الوسادة تمد

يدها فوق السرير الفارغ. في تلك اللحظة فتحت عينيها مجفلة وقد ازداد لون البنفسج عمقاً في عينيها وقد أدركت أنها وحدها... خلال لحظات لم تستطع أن تتحرك، وخفق قلبها بين ضلوعها وقد حلت في ذهنها صورة رهيبة.

لا.. طبعاً.. بكل تأكيد لم تكن تحلم! لا يمكن أن تتخيل.. دفعت نفسها لتجلس، وأحست بأنها.. شبه عارية، فأنزلت قدميها عن السرير وقد انفرجت اساريرها، فشاهدت ثيابها مرمية على الارض، وسترة جوزف وقميصه على الكرسي. فاشتد احمرار عينيها، وهدأ خفقان قلبها ثم عادت لتستلقي قانعة، وشفتاها مفترتان عن ابتسامة سعيدة.

لكنها تذكرت أن عليها أن ترتب المنزل وتنظفه بمساعدة جوزف.. كما، إنها لم تعد قادرة على تحمل العيش دون رؤيته لحظة واحدة.

هبت واقفة بسرعة تريد أن تنزل لتسبح في البركة قبل أن تعد الفطور لها ولجوزف. وابتسمت مرة أخرى بعد أن أقرت أنها بعد ليلة الامس أصبح توقع الظهور أمامه بثوب سباحة جديد.. أمر مثير.

عبرت غرفة الجلوس حافية القدمين، نحو الشرفة. فتحت الباب، وعيناها تبحثان عن الشخص الوحيد الذي تود رؤيته. ثم سارت ببطء فوق حجارة الممر، حيث وقفت أمام المياه الصافية الزرقاء لحظات قبل أن ترمي نفسها فيها. في تلك اللحظة بالذات شاهدت صورة جوزف المنعكسة فوق صفحة الماء، فاستقامت واستدارت إليه بخجل... كان يرتدي سروالاً

وقميصاً مفتوحاً حتى الخصر، ويبدو أن شعره مبلل فأحست بخيبة أمل. وقالت:

ـ أملت أن نسبح معاً. لكن يبدو أنك. .

ـ لا. . لقد استحممت . . تركتك. . قبل نصف ساعة. . يا حلوتي كنت أقول لك دائماً إنني أهوى رؤية عينيك، أما بالنسبة للسباحة معك، فهي فرصة لا أستطيع مقاومتها. . . تماماً كما لا أستطيع أن أقاوم أي شيء فيك. بل كما يستحيل عليّ ذلك. . سأعود بعد دقيقتين، إذا انتظرتني.

وابتسم ثم حث الخطى الى المنزل. وعاد بسرعة كما وعد فرمى لها منشفة غير التي يحملها. .

ـ تفضلي حبيبتي، يبدو أنك مازلت مصابة بدوار الحب فنسيت ما يجب أن تفعلي.

ـ كان يجب أن أفكر قليلاً. . . جوزف. .

ـ نعم حبيبتي؟

لكن قبل أن تستطع قول شيء سمعا وقع أكعاب رفيعة حادة ثم غمغمة أصوات، فالتفتا معاً، يشعران بالسخط من هذه المقاطعة.

خطت فيرونيكا أمامهما ترتدي فستاناً من الحرير الاخضر، وكل خصلة من شعرها الاشقر مجعدة، ثم توقفت عندما شاهدتهما يقفان متلاصقين بشكل حميم، وقد خيم على وجهها ابتسامة رضى غريبة، شاهدتها أنونا قبل أن تستدير فيرونيكا الى الرجل الذي كان يرافقها، وسرعان ما لاحظت الشخص الاسمر، الذي كانت عيناه ثابتتين عليها يدنو منها، ناطقاً

باسمها.

الصورة أمامها بدأت تسير بسرعة بطيئة كالتي في الافلام. .

سمعت شهقتها وهي لا تصدق ثم أحست بأن ساقيها تنطويان تحتها. . . واقترب أليكسي منها تلك الخطوات الفاصلة بينهما، ويداه ممدودتان. . . لكنه، وبالسرعة البطيئة نفسها، بدا وكأنه يركض ويركض ولا يقترب، ومن خلفه فيرونيكا ذات الضحكة الشيطانية التي توجهها الى جوزف، والى أنونا بخبث وحقد.

قبل أن يصل إليها أليكسي، أمسك جوزف بذراعها وقرّب لها كرسياً لتجلس عليه. . . فرفعت رأسها بيأس الى القسمات الوسيمة الساحرة، فسمحت لصاحبها بأن يرفع يديها الى فمه، ثم سمعت شهقة بكاء، لم تعرف مصدرها. . .

ـ أنونا. . . حبيبتي أنونا!

في عينيه دموع، تهزها المشاعر وهو ينطق باسمها. . ثم سمعت صوت فيرونيكا الخشن أكثر من العادة:

ـ أليست هذه مفاجأة؟ ليلة أمس أوصلت بيبي الى فندقه، وبينما كنت راجعة وجدت شخصاً حائراً بأمر سيارته المعطلة على جانب الطريق. . بالطبع عرفته فتوقفت. . .

قاطعها صوت جوزف غير المشجع على أن يتحداه أحد. . ثم التفت متجهماً نحو ابن عمه:

ـ اصمتي فيرونيكا! ماذا تريد يا أليكسي؟

في ظروف أخرى كان يمكن لنظرة الارتباك على وجه أليكسي أن تكون مضحكة، لكن ما من أحد استطاع أن يبتسم، حتى فيرونيكا فقدت كل ميل للمرح. . . وضحك أليكسي

ضحكة خفيفة:

ـ ماذا أريد؟ ماذا تظنني أريد جوزف؟ أريد أنونا! أريد زوجتي.

مد يده يجذب أنونا لتقف على قدميها. ففكرت حينئذ مستغربة لأنها اعتقدت ذات يوم أنه وابن عمه متشابهان.. نعم هي لا تنكر أن كلاهما أسمر، لكن هذا الوجه وجه ضعيف طفولي تشك في أن يتطور ليصبح بقوة وصلابة ابن عمه الاكبر.. إن أليكسي إذا قورن بجوزف يعتبر هزيلاً غير ناضج.. فحاولت أن توقف التفكير عما يجري في ذاكرتها.. فجأة أحست بالدنيا تميد بها بجنون وبالدوار يجتاحها.

سمعت صوت جوزف يصيح محذراً بكلمات لم تفهمها، في تلك اللحظة الأخيرة قبل أن تفقد كل ادراك عما حولها، أحست بأن أليكسي أزيح جانباً وأن ذراعي جوزف القويتين تحملانها.. كما حملتاها ليلة أمس...

فتحت عينيها فرأت الغرفة تدور ثانية.. ثم استفاقت. فإذا يد تضغط قطعة قماش باردة مبللة على جبينها:

ـ كيف أنت الآن يا أنونا؟

راحت صورة خضراء ضبابية تتجلى حتى بانت تلك الفتاة التي تكرهها أنونا.

ـ أنا بخير.

وأشاحت بوجهها عنها:

ـ جيد..

كان في صوت فيرونيكا نبرة رضى جعلتها تكافح للسيطرة

على أعصابها. جلست فيرونيكا على حافة السرير وعيناها تبتعدان عن أنونا لتدورا في الغرفة وهي تكمل كلامها:

ـ أخشى يا أنونا، أنك قد سمحت لأليكسي وجوزف باستغلالك.. لكنك لم تكوني عارفة بهذا يا عزيزتي!

أجبرت أنونا نفسها على الجلوس:

ـ لا أظن أن أحداً استغلني. أتسمحين باعطائي الروب.. شكراً لك.

لفت الروب حول كتفيها، وأحست بالراحة لأنها سترت جسدها الذي لا يستره إلا ثوب السباحة فقط.

جذبت فيرونيكا علبة سكائر، دون استئذان، ثم أشعلت واحدة. وقالت:

ـ أوه.. عائلة بيري إستاليا.. إنك لا تعرفينهم يا حبيبتي. أوافق على أنهم رائعون.. وفاتنون، لكنهم دائماً يستخدمون أية وسيلة للوصول الى غايتهم.

وابتسمت ابتسامة زائفة، ثم أردفت:

ـ أعرف جوزف منذ زمن طويل أنونا. وقد شاهدته وهو يحاول السيطرة على مرارته... أنت لا تعرفين شيئاً. لقد صادقته عائلتي منذ قدومه. وساعده والدي، الذي اعتبره ابناً له بطريقة ما. لكنني كنت أعرف دائماً أنه في أعماقه لم ينسَ ولم يسامح. ففي مثل هذه العائلات العريقة فكرة الميراث تكون متأصلة الجذور... أتعلمين.. أعتقد أن جوزف يفعل أي شيء للانتقام من زوجة عمه.. لأنها من يلومها قبل الجميع لخسارته ما هو مؤمن بأنه حقه.

دون أن تتكلم، حدقت أنونا الى الفتاة الاكبر سناً، ثم راحت تجمع أفكارها لتعرف مدى اطلاع فيرونيكا على الوضع الحالي. هل شرح لها أليكسي ما حدث؟ أم كان كتوماً، ولم يكشف سوى ما أحس أنه مناسب؟ لكن كلماته دوت في أذنيها: أريد أنونا.. أريد زوجتي... إذن من المحتمل أن فيرونيكا تعتقدهازوجة أليكسي...

قاطعت الفتاة أفكار أنونا:

ـ تفهمين ما أقول أنونا؟

ـ ماذا..؟ أنا آسفة.

ـ كنت أقول إن جوزف ليس الرجل الذي قد يترك فرصة يصحح فيها وضعاً يظنه ظالماً مجحفاً بحقه، ويجب ألا تلومي نفسك أنونا. كلنا نعرف كم هو جذاب لا يقاوم.

ـ ألوم نفسي؟

ـ أجل.. ولا حاجة الى أن يعرف بالامر. فإذا نجحت خطة جوزف وحملت جنينه.. فسيكون هذا الوليد الذي ينتمي الى عائلة بيري إستاليا هو وريث الاملاك كلها. وأنا لا أشك في أنه ستبقى في نفسك ذكرى أيام جميلة قضيتها هنا مع جوزف.

وضحكت ضحكة جعلت أنونا ترتجف، لكنها سيطرت على نفسها بصعوبة وقالت ببرود:

ـ أتسمحين بالنزول الى تحت؟ قولي لهما إنني سأنضم إليكم بعد لحظات.

ـ طبعاً عزيزتي. رويدك، سأشغلهما حتى نزولك.

ـ أرجوك.. اخرجي من هنا.

دون أن تتفوه بكلمة ارتدت فيرونيكا على عقبيها وخرجت تغلق الباب وراءها بهدوء مبالغ فيه.

التفتت أنونا ببلادة حس، الى الوسائد التي استلقت مع جوزف عليها ليلة أمس... حتى هذا كان جزءاً من خطة... هذا واضح لها الآن... جوزف بخبرته أوصلها بكل عناية لتصبح ألعوبة بين يديه... ولو سأله أحد، لقال ربما إنها شجعته. عندها رفعت قبضتا يديها فضغطتهما على عينيها المغمضتين... أليس هناك نهاية لغبائها؟ كيف انخدعت هكذا؟

كانت ترتجف عندما نهضت عن السرير، لكنها صممت على وضع حد لكل هذه المهزلة... خلعت ثوب السباحة وارتدت فستاناً أسود وأبيض من الحرير تناولته عن المشجب دون تفكير. ثم وقفت أمام المرآة تشبك الحزام العريض حول خصرها. ودفعت خصلات شعرها الى الوراء، ثم دست قدميها الحافيتين في خف ليس له أكعاب.

عندما دنت من الباب تناهى إليها همهمة أصوات قادمة من غرفة الجلوس.. ترددت في الدخول لكنها أجبرت نفسها عليه. وقع أقدامها بدا لها قادماً من بعيد، عيناها تميزان ما أمامها بصعوبة.. ووقف الرجلان. وتقدم أليكسي نحوها. لكن عينيها سعتا نحو جوزف.

كان ينظر إليها وتعبير كئيب يجتاح وجهه وكأنه غير راضٍ عنها. أحست أنونا بأن أليكسي أمسك يدها فحاولت تجنب ضمه، لكنها لم تستطع منعه من أن يضع خده على خدها

ضاغطاً. . سرعان ما عادت بها الذكرى الى لندن بعد أن شمّت رائحة عطره المألوفة.

ـ أنونا. . حبيبتي! تعالي واجلسي.

قادها الى الاريكة وجلس قربها، ممسكاً يدها، فسألته:

ـ متى عدت من أميركا؟

ـ ليلة أمس. كان يجب أن أصل بعد الظهر، لكن الطائرة تأخرت، ثم تعطلت سيارتي. . ولولا مرور فيرونيكا. . حتى في ذلك الوقت المتأخر كنت أرغب في المجيء رأساً الى هنا. . . لكنها أصرت على أن أمضي ليلتي في شقتها. . وأظنها كانت على صواب، فقد كان الوقت بالفعل متأخراً. . .

فقاطعته فيرونيكا قائلة بنعومة:

ـ كنت مرهقاً ليلة أمس أليكسي، فقد أرهقك السفر من أميركا الى إيطاليا.

وتكلم جوزف لأول مرة بصوت هادىء لا يشوبه انفعال.

ـ أجل. . نحن جميعاً نشكرك فيرونيكا. . . والآن أتصور أنك تريدين العودة الى منزلك و. .

ـ لا داعي للعجلة جوزف. . .

لكنه تجاهلها:

ـ ثم أن لدينا أموراً كثيرة نناقش بشأنها. . وقد يتطلب ذلك وقتاً طويلاً.

ووقف، مانعاً عنها أي احتجاج.

ـ طبعاً. . كان يجب أن أفكر في هذا!

التقطت حقيبتها، ثم وقفت تنظر الى أنونا والى أليكسي،

وقالت بسخرية لاذعة:

ـ أرجو أن أراكما قبل أن تسافرا. . . وداعاً أليكسي، وداعاً أنونا.

فوقف أليكسي:

ـ وداعاً فيرونيكا وشكراً لك.

لم ترد أنونا عليها ولم ترفع إليها بصراً وقد خرجت يرافقها جوزف حتى الباب. بعد ذلك جلس أليكسي ووضع ذراعه حولها ليجذبها إليه:

ـ حبيبتي!

وجمدت أنونا. . أيمكن أن يكون هذا هو الرجل الذي أحبته بجنون منذ بضعة أسابيع؟ أم ظننت أنني أحب؟

وعاد جوزف الى الغرفة، ووقف عند الباب ينظر الى عناقهما. ثم تقدم، ويداه على خصره، ووقف لينظر إليهما حتى أبعد أليكسي أنونا عنه ضاحكاً، ووقف بدوره.

ـ لا يمكنني إلا أن أشكرك ثانية جوزف. . يبدو أنني أمضيت حياتي كلها أشكرك على مساعدتك إياي في حل مشاكلي.

ولم يرد جوزف بل توجه الى الطاولة حيث صب كأس شراب وعاد ليعطيه الى أنونا:

ـ اشربي هذا، فقد عانيت من صدمة قاسية.

حاول أن يرفع ذقنها باصبعه لكنها قاومته متنهدة. وجلست تنظر الى شرابها، ثم وضعت الكأس من يدها. فأخذ أليكسي ينقل البصر من أحدهما الى الآخر بحيرة.

- حسناً.. لو أحببت أن تحضري أغراضك أنونا...

فتراجعت في مقعدها تنظر إليه:

- ماذا؟

- لقد استأجرت سيارة أخرى وسآخذ أغراضك...

- الى أين؟ الى أين ستأخذني أليكسي؟

فاحمر وجهه:

- حسناً يمكننا الذهاب الى الفندق الى أن تتدبر الامور القانونية، ثم...

فضحكت ووقفت:

- ثم تأخذني الى القصر... ونعيش سعداء الى الابد... أنا.. وأنت... وأمك! أهذا ما يجول في فكرك أليكسي؟

- شيء من هذا القبيل. لا ألومك على غضبك حبيبتي...

وضحكت أنونا ضحكة ساخرة:

- غضبي؟ لقد استخففت بقوتك كثيراً يا أليكسي.. فالغضب كلمة غير كافية لوصف المشاعر التي أحسست بها عندما اكتشفت ما حدث. ربما أصفه بالانزعاج الكريه... أنت.. يا من ادعيت أنك تحبني... يا من ادعيت أنك ستحميني...

التفت أليكسي ينظر متوسلاً الى ابن عمه:

- لكن جوزف كان موجوداً ليحميك... وأنا أثق به. فلطالما اعتمدت عليه... ولا يمكنك القول إنه لم يحمك أو يعتني بك!

حدقت أنونا في الوجه الطفولي الحائر المرتبك، رافضة

النظر الى الوجه الصارم الاسمر الآخر.

- لكنني أردتك أنت أليكسي.

مد يده وكأنه يتوسل:

- لكننا نستطيع نسيان الماضي أنونا... أمامنا ما تبقى من عمرنا.

وأحست أنونا بأنها الآن ثابتة وواثقة من نفسها تماماً:

- لا يا أليكسي.. هذا هو بالضبط ما نفتقد إليه... فما فعلته بي.. كان شيئاً لن أستطيع نسيانه، أو مسامحتك عليه، ولا تنتظر مني ذلك.

- جوزف...

كان صوته صرخة طفل يطلب العون من أخيه الاكبر. لكن جوزف قال وعيناه على أنونا، وكان عليها أن تقاوم لئلا تنظر إليه:

- أنونا محقة يا أليكسي... ثم هناك أمور لها أهميتها الآن.

- لها أهميتها؟

- أجل.. في سبيلك أنت كنت مستعداً للقيام بهذا العمل القذر... وذلك لأساعدك على مقاومة تسلط أمك. لكن كما قالت أنونا، لقد كنا قاسين ومخطئين بحقها. لكنني فعلت ما فعلت.. وإذا كان هناك أية نتائج، فأنا مستعد لحمل وزرها. وما أحاول قوله لك أليكسي.. هو أنني ظننت نفسي قادراً على الزواج منها من أجلك.. لكنني الآن لست مستعداً للتخلي عنها لك أبداً.

لم تكد تسمع أنونا ما قاله. . فكل ما تعرفه أنها إذا لم تهرب الآن من الغرفة، فستضطر للنظر الى جوزف، وهذا ما لن تقدر على تحمله. فرفعت نظرها الى أليكسي:

ـ وداعاً أليكسي. . . أرجوك، لا تحاول رؤيتي ثانية. صدقني، إن هذا لن يفيدك بشيء.

وصاح بصوت معذب:

ـ أنونا!

سيطرتها على نفسها بدأت تهن فصاحت:

ـ لا أريد رؤيتك ثانية. . بل لا أريد أن أسمع اسمك حتى. إنه اسم أحتقره!

ووضعت يديها على أذنيها ثم ولّت هاربة من الغرفة. لكن، الغريب في الأمر أنها عندما وصلت غرفتها أحست بالرّاحة والهدوء. فدنت من غرفة الملابس حيث حقائبها. . وبهدوء وروية راحت تتناول ملابسها من الخزانة وتطويها وتضعها في الحقائب. في هذا الوقت كان يدور في رأسها صوراً عما سيكون بانتظارها. أيمكن أن تستقل القطار من هنا الى روما؟ أتقبل شركات الطيران أن تقبض منها شيكات سياحية ثمناً للتذكرة الى لندن؟ أيكون من الخير لها البقاء في فندق، على أن تسافر غداً؟ ومع ذلك، كان في زاوية تفكيرها فكرة مريعة. . . وكأنها ضربة مؤلمة لقلبها، فسرعان ما ستقول وداعاً لجوزف. . .

فجأة انفتح الباب، ووقف الى جانبها بعد أن أقفله ثانية. ثم طفقت عيناه تتبعان كل حركة تقوم بها. مع أن قلبها كان

يخفق بجنون، إلا أنها بقيت على حذر متجنبة النظر إليه مباشرة. رفعت بيدها كومة مطوية من الملابس الداخلية ووضعتها في الحقيبة فوق كومة من التنانير والقمصان. . . فقال لها أخيراً، بصوت تظهر فيه التسلية:

ـ يبدو أنك ما عدت مهتمة أنونا؟

ـ أجل.

ـ ألا تريدين فعلاً معرفة شيء؟ ألا تريدين معرفة ما حدث لأليكسي؟

وتقدم من قائمة السرير فأمسك بها. . . عندها هزّت رأسها نفياً. . دون أن تتكلم:

ـ ألن تهتمي لو قلت لك إنه غادر المنزل منذ نصف ساعة؟

ـ لا أهتم.

لكنها تهتم أنه تأخر كثيراً حتى صعد ليراها.

ـ أواثقة أنت أنونا؟

فجأة يداه القويتان أمسكتا بكتفيها، وأدارها لتواجهه بحيث لم يترك لها مجالاً للخلاص من قوة تملك عينيه النافذتين:

ـ من المهم لي أن أعرف.

ـ واثقة؟. . طبعاً أنا واثقة! فأنا أكرهه. . وأكرهك. أوه. . لماذا فعلت. . .

لكن دموعها خيبت أملها فناضلت لتمنعها من الاندفاع الى وجنتيها، ووجدت نفسها مضمومة الى صدره، ويديه تداعبان شعرها.

ـ اهدئي. . اهدئي حبيبتي. . لم يعد الامر مهماً.

ثم راح يتمتم بلغته كلمات صغيرة رددها خلال غزلهما ليلة أمس... أخيراً توقف نحيبها.. فأبعدت نفسها عنه.

ـ آسفة.. لم أكن أقصد أن أفعل هذا.

وحاولت ابعاد وجهها المغطى بالدموع عنه، لكنه لم يسمح لها، بل أجبرها على النظر إليه بيد ثابتة رفعت وجهها إليه.

ـ إذا كنت حقاً لست مهتمة.. فسأشرح لك بعض الوقائع.. وعندها ربما تفهمين ما مر بنا، يا عزيزتي.

جعلها آمنة ترتجف بين يديه، لكنه لم يعط دليلاً يشير الى أنه لاحظ ارتجافها، وانقلب وجهه رزيناً بينما بقيت عيناه تبحثان عن شيء.. لا تدري ما هو.

ـ أنونا.. العزيزة العزيزة... لم أكن أستطيع من قبل أن أقول ما من حقك أن تعرفيه.

أرخى قبضته عنها متنهداً، فحرمها بذلك من دعم ذراعيه اللتين تعطيانها الحياة ثم قال وصوته خال من العاطفة:

ـ زوجة عمي... والدة أليكسي، امرأة، كما لاحظت، غير متزنة.

انتظرها حتى أشارت برأسها الى صحة كلامه...

ـ لم أكن قد رأيتها منذ سنوات عديدة. مع أنني كنت أسمع من أليكسي كيف أن جنون التملك والسيطرة ازداد عندها، الا أنني لم أكن أقدّر تماماً ما أصبحت عليه بالفعل. وكنت أعلم أن أليكسي يجب أن يفعل شيئاً، فلقد تعاظم جنونها حتى ما عاد بالامكان تجاهله. ولأجل سلامة الجميع كان يجب أن...

وصمت للحظات، قبل أن يكمل:

ـ هذه الحقائق كان يجب أن أخفيها عنك يا صغيرتي خاصة وأنا أظن، يا إلهي كم عذبني هذا الظن!... إنك كنت تحبين أليكسي وتودين فعلاً الزواج منه. لكنني لم أكن أستطيع تركك تنضمين الى عائلة.. غير مستقرة.

ـ أوه.

راحت أفكار مجنونة تدور كالدوامة في رأسها، وتذكرت ما قالته لها ڤيرونيكا... ألن يكون لهذا الكابوس من آخر؟

وسمعت صوته العميق يردف، فحاولت تركيز ذهنها على معاني كلماته:

ـ إضافة الى هذا، كنت أخشى أن تؤذيك السنيورا بعض الاذى، إذا شكت في ما كنا نخطط له، والله وحده يعلم ما قد تقوم به. فهذا الحسّ، هو إرث متوارث في عائلة بيري إستاليا، استولى عليها حتى أوقعها في شرك نفسها. هي وكل من تظن أنهم يدينون بالولاء للقصر.

وصمت ينظر الى أنونا وكأنه لا يراها. ثم استرخت أسارير وجهه وهز كتفيه:

ـ آه.. حسناً. ربما يجب أن لا نحكم عليها بقساوة، فقد مرت عليها تجارب قاسية.

ساد صمت طويل، وهو ينتظر ردّها، لكنها كانت غارقة في أفكار أخرى، تتذكر ما قالته ڤيرونيكا عن امكانية حملها منه. لكن أيرضى رجل ينتمي الى عائلة عريقة أن يقبل بأن يمتزج دم ابنه بدم مشكوك فيه.

وامتدت يداه القويتان اللتان لا تقاومان فأحكمتا الامساك بها مجدداً، لتجذباها نحوه. كانت عيناها الجميلتان مظللتين بالشوق تنظران الى وجهه الحبيب، وشفتاه تنطقان بكلمات لم تكد تفهمها.

ـ والآن، كل ما أريده هو أن أتأكد من بقائك معي. أعلم أنك تكرهين اسم عائلتي، لكنني مستعد لاستبداله بآخر. فأمامي دائماً اسم دونيللي.

مع ذلك لم تلاحظ حتى كلماته، لأن كل أفكارها انصبت على كلماته الأولى وسألته همساً:

ـ أتريدني أن أبقى معك.. لأكون عشيقتك...

فهزها بلطف ضاحكاً.

ـ أنونا.. يا صغيرتي.. أنت زوجتي... أنسيت هذا؟ هذه الحقيقة الوحيدة التي خرجنا بها من كل القصة، وهي أهم حقيقة.. فما حدث ليلة أمس، لم يكن حادثاً عابراً.. ليس بالنسبة لك ولا بالنسبة لي. إنه شيء حتمي.. مهما أكدت لك العكس، فأن شوقي لك كان شوقي الى زوجتي التي لم يكن لي عليها حق.. وعدم قدرتي على الاقتراب منك كاد يجنني.. أترين أنونا... منذ أن رفعت البرقع عن وجهك، عرفت أنني التقيت المرأة التي أريدها والتي أريد أن أعيش معها الى الأبد. هل تتصورين الآن ما مررت به من عذاب؟

ـ إذن لم يكن هذا...

وعضت على شفتها غير قادرة على أن تتم جملتها.

ـ ماذا يا حلوتي؟

ترددت، لأنها تذكرت ما قالته فيرونيكا، ولأنها تذكرت الآن بوضوح مرعب، ردة فعل جوزف الرهيبة ذلك اليوم قرب البركة عندما ظنها حاملاً. أيكون غضبه يومذاك لأنه اعتقد أن خططه فشلت؟

عندما عجزت عن تحمل سوء الظن به ارتجفت الكلمات بين شفتيها.

ـ خالت فيرونيكا أنك قد تذهب بعيداً لتكون متأكداً من أن ابنك سيرث القصر، حتى ولو ظن أليكسي أنه ابنه.

تفوه بكلمة إيطالية لم تفهمها، لكنها عرفت أنها بعيدة عن التهذيب بحق فيرونيكا.

ـ أتصدقين هذا أنونا؟

ـ أنا.. أنا.. لست أدري.

التنهيدة التي أطلقها أعلمتها أن أمله خاب:

ـ أيجب أن تعرفي... لكن لماذا أدافع؟ ولماذا يجب أن تعرفي بعدما مررت به؟ إذا قلت لك إن الفكرة لم تخطر لي على بال قط.. فهل تصدقينني؟

وجاء دورها لتتنهد:

ـ ... لكن زوجة عمك.. لقد قلت... أنت وهي... قلت إنك وافقت على الزواج مني لسبب ما.

ـ أجل.. قلت لك هذا.. وأنا آسف عليه. لكن كان فيما قلته بعض الصدق. حين قلت هذا كنت أحاول أن أذكر نفسي بالاسباب الاصلية للزواج... في محاولة مني لدفع ما عليّ لأساعد أليكسي على التحرر من أمه. نعم لا أنكر أنها

استخدمت نوعاً من الرشوة لاقناعي وتظاهرت بالقبول. لكن فيما بعد، حين رأيتك، بل حين عرفتك عن كثب، أحسست بالخجل مما فعلت. لكنني لم أندم.. قط لم ولن أندم أبداً.

ـ أوه... جوزف!

ما كادت تحتمل جرعة السعادة التي كانت تتجرعها، والتي كانت تسري في عروقها.. أسندت رأسها الى صدره، تصغي الى ضربات قلبه. فتحت أصابعها على اتساعها على القميص القطني الرقيق، تتحسس عضلات جسده.. لكن كان أمامها سؤال واحد بعد، ربما بات الآن غير مهم!

ـ وفيرونيكا؟.. أنت وهي!

ـ أنا وهي... لم نكن يوماً كما تظنين. والدها أفضل أصدقائي وأنا مدين له بالكثير، لكن هذا الدين لا يشمل ابنته.. وقبل أن يموت كان يعرف مشاكلها وطلب مني مراقبتها. وهذا ما فعلته خلال السنوات الخمس الأخيرة. لكنها الآن باتت في عمر يسمح لها بأن تعيش وحدها وكما يحلو لها... وهي كمعظم الناس، تسمع النصيحة التي تحب أن تسمعها.

ـ لكنها تحبك.

ـ أشك في هذا، لأنها تهوى التغيير، ولم يكن لدي الرغبة يوماً في أن أكون أحد الذين على لائحة أحبائها الطويلة.... لو رغبت فيها يوماً لكانت الآن دون شك قد ملّت مني منذ زمن بعيد.

ـ ومارلين شيلدز؟ أكنتما..؟

وخزة أخرى من وخزات الغيرة جعلتها لا تنسى اسم تلك

المرأة الجميلة.. فاطبق فمه على شعرها يُمرره بلطف حتى جبينها:

ـ أبداً.. أبداً يا حلوتي.. ولا أظن أن زوجها سيسرّ لهذا.

زوجها...! من الغريب أن هذا لم يخطر لها على بال؟ ليتها عرفت الحقيقة من قبل لوفرت على نفسها آلام الغيرة المعذبة والسهر الطويل، بسبب فيرونيكا ومارلين. تنهدت ثانية وهي ترفع رأسها إليه، خافقة القلب مستجيباً بضربات عنيفة الى المرح الظاهر في عينيه.

ـ جوزف.. لماذا؟ الأمر غريب لا يصدق.. لماذا؟ لماذا؟

ـ هذا ما لا أستطيع الاجابة عنه أنونا. ولا أكاد أسامح نفسي عليه.. مع ذلك لو لم أفعل، لما التقينا... وربما كان القدر هو من خطط لنجتمع معاً.

وتحركت يده تلمس ضربات قلبها المتسارعة، وزحفت ذراعاها الى عنقه، وأناملها الطويلة تسللت الى شعره. أمّا شفتاها فافترتا شوقاً إليه، وقد خرجت من فمه آهة باسمها «أنونا» ثم تحركت شفتاه على وجنتها.. وهممت بالرد، لكنها كانت غائبة عن أية قدرة على الكلام، فتابع وقد بلغ فمه أذنها:

ـ ثمة شيء آخر يجب أن أقوله.

يداها العابثتان في شعره تسمرتا ثم انسلتا الى صدره، تهمس بحيرة:

ـ نعم؟

ـ كنت منذ قليل أتحدّث هاتفياً... وهذا ما أخرني عن الصعود إليك... كنت أتحدث مع أمك.

ـ أنت. . أنت ماذا؟

ـ اتصلت بها لأقول لها إننا تزوجنا. . لقد عادت وزوجها الى نيويورك منذ أسبوع.

أبعدها عنه ونظر إليها مستنكراً.

ـ وماذا بعد؟ (سألته).

ـ قلت لها إننا سنصل نيويورك قريباً وقد نذهب الى البهاما في شهر عسل متأخر. كما أرجو.

كان صوته عميقاً حنوناً وهو يردف:

ـ وأرجو كذلك يا صغيرتي. . أن توافقي على الذهاب معي.

فابتسمت وهي تنظر إليه. . ثم قالت حالمة:

ـ ألدي خيار آخر؟

ـ ليس في الواقع. . . وأظن أن لا خيار آخر لنا. لكنني الآن أظن. . .

وأكمل حديثه ببطء بينما عيناه تحدقان في وجهها:

ـ أظن أن على تنظيف المنزل أن ينتظر فترة وجيزة. . .

وتقارب رأساهما، وقبل أن تذوب بين ذراعيه قال:

ـ ثمة أشياء كثيرة أهم، أرغب في فعلها الآن يا حبيبتي.

■ ■ ■